

غارات النورمانيين على الأندلس

بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ - ٨٤٤ و ٨٥٩ م

وسفارة يحيى العزال إلى ملك النورمند في سنة ٨٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م .

١

عبد الرحمن الأوسط وعصره

حينما تولى الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط العرش كان الأندلس الإسلامي قد سلخ من عمره قرناً وإحدى عشرة سنة . وكانت الإمارة الأموية الأندلسية قد خلفت وراءها ستاً وستين سنة ، وهما فترتان قصيرتان لم يكد أى قطر إسلامي آخر يحقق خلالها شيئاً ذا بال ، فقد كانت مصر مثلاً إذ ذاك ولاية إسلامية تابعة للخلافة العباسية لم تظهر بعد شخصيتها ، وكان أهلها لا يزالون يتحسسون طريقهم إلى الوعي الذى لن يظهر بصورة واضحة بعض الشيء إلا فى ظلال الطولونيين ، بعد ذلك بنحو نصف قرن . أما الأندلس الإسلامي ، فكان قد أيفع فى ذلك الحين واشتد عوده ، وظهرت شخصيته القوية ونزعة أهله القومية التى حفزتهم إلى هذا النضال المحيد الذى حملوا عبئه دفاعاً عن قطرهم ، من غارات نصارى الفرنج فى الشمال الشرقى ونصارى الإيبان فى الشمال الغربى .

ولعل قطراً إسلامياً آخر لم يسر فى طريقه بخطى ثابتة ، وعن وعى ناضج ، كما فعل الأندلس الإسلامي ، منذ قيام الإمارة الأموية سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٦ م ؛ فقد استطاع عبد الرحمن الأول أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال التى كانت تملأ أذهان العرب والبربر الذين اقتطعوا لأنفسهم نواحي الأندلس وأرادوا الاستقلال بها ، على عهدهم إذا لم يقسره سلطان حازم على الوحدة والطاعة والنظام ، وقضى فى ذلك ثلاثاً وثلاثين سنة لم يعرف خلالها للراحة طعماً ، إلاخلال ثلاث سنوات متفرقة يعينها المؤرخون بالذات .

ثم أقبل ابنه هشام ، فجعل همه القضاء على أطاع النصرانية في الشمال ؛ وأقبل بعده الحكم بن هشام ، وكان شاباً مرحاً طروباً للحياة ، فحسب الأندلسيون أنهم بالغون في عهده ما أعجزهم بلوغه في أيام أبيه وجده ، واستخفوا به ووثبوا به هذه الوثبة الخطرة التي تعرف « بثورة الربض » ، فألهمت هذه الوثبة شرارة العبقرية الكامنة في نفسه ، فتصدى لها بجزم وثبات ، وقضى عليها ، وأعاد أهل الأندلس إلى صوابهم . وحينما انتهت حياته في ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢٠ م استطاع الحكم أن يسلم ابنه عبد الرحمن بلداً هادئاً وادعاً ، تشرّب نفوس أهله إلى فترة من الأمن والسلام ، ليريحوا أنفسهم من قلاقل السنوات الماضية .

وكان عبد الرحمن نفسه شاباً ذكياً متفائلاً بالحياة ، يعرف كيف يستمتع بأطايها دون أن يخالد إلى الحمول والترف ، فكان على انصرافه إلى اللهو المعتدل يقطاً يرقب كل شيء بعين الواصل من نفسه المستعد للنهوض إلى الأهوال إذا تداعت . . . وهبّت على رعيته نسبات من خلقه ، فانصرفت إلى العمل والدرس والاستمتاع بالحياة ، وكثر ورود المشاركة إلى الأندلس ، حاملين الخير الكثير والعلم الكثير . وأخذ الشعب الأندلسي الذي نشأ من مزاج من العرب - بدكائهم الفطري وشجاعتهم واعتزازهم بأنفسهم - والبربر بدأهم على العمل وصبرهم على المضازك وإخلاصهم لما يؤمنون به ، والإيبيريين الرومان بما عرف فيهم من شجاعة وشدة مراس وميل إلى الإبداع الفني ، أخذت مواهب هذا الشعب تتجلى خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري (النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي) وقامت دولتهم زاهرة ، بين عالم إسلامي شرقي منهار متفكك يسير نحو الفوضى والاضطراب ، وعالم أوربي نصراني غربي انحلت وحدته وسادته الفوضى من جديد بعد انهيار الدولة الشلمانية وتقسهما بمعاهدة فردان سنة ٨٤٣ م ، ولعل مؤرخاً لم يحمل وصف حال البلاد الأندلسية حينما صارت أمورها إلى عبد الرحمن الأوسط بمثل ما قاله صاحب الأخبار المجموعة : « ... وألقى الملك قد مُهد ووطد ، فخلا بلداته وانفرد بشهوته ، فكان كداخل اللجنة التي جمع فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين (١) » . . . فأتاحت لعبد الرحمن الداخل الفرصة لينهض بالعمل الذي أجمله ابن الأبار حين قال : « وهو الذي استكمل فخامة الملك

بالأندلس ، وكسا الإمارة أمية الخلافة ، وظهر في أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور ، وشيد القصور وجلب المياه من الجبل ، وبنى الرصيف على الوادى ، وهو القائل متشوقاً ومفتخراً :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيبا فما أقطع الليل إلا نحيبا
ولما بدت لى شمس النها ر طالعة ذكرتنى « طروبا »

و « طروب » هى جاريته المفضلة العزيزة عليه بين نسائه ، وقد قال فيها عبد الرحمن شعراً كثيراً وأغدق عليها مالا كثيراً^(١) .

وكان عبد الرحمن إلى جانب ذلك ذا إحساس فطرى بما ينبغى للملك وإدارة شؤون الدولة من سمت ونظام ، ولا يصور لنا هذه الملكة فيه قول عيسى بن أحمد الرازى : « إنه الذى أحدث فى قرطبة دار السكة » وضرب الدراهم باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب ، وفى أيامه دخل إلى الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجاليه ، ووافق انتهاب الذخائر التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمويين ، فجلبت إليه ، وانتهت جبايته ألف ألف دينار فى السنة ، وهو الذى اتخذ للوزراء فى قصره بيت الوزارة ، ورتب اختلافهم إليه فى كل يوم ، يستدعيهم منه أو من يختص منهم ، أو يخاطبهم بقرع فيما يراه من أمور الدولة^(٢) . وهى عبارة عظيمة الأهمية فى تاريخ النظم السياسية .

وكان الرجل يفهم واجب الحاكم حيال الرعية حق الفهم ، ولابن سعيد رواية تضع عبد الرحمن فى الرعيل الأول من أجلاء حكام المسلمين وأعرفهم بمصالح الرعية ، وذلك حيث يقول : « رفع له أحد المشتغلين بتمشير الخراج أن القنطرة التى بناها جده على نهر قرطبة ، لو رسم على الدواب والأحمال التى تعبر عايتها رسم لاجتمع من ذلك مال عظيم ، فوقع : نحن أحوج إلى أن نحدث من أفعال البر أمثال هذه القنطرة ، لا أن نمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس القبيح ، فتكون عائدته قليلة لنا ، وتبعته وذكره ألسن علينا . وهلا كنت نهتنا إلى إصلاح المسجد المجاور لك الذى قد تداعى

(١) الحلة السراء ، طبعة دوزى ، ص ٦٢ . وانظر رأى دوزى فى هذه الجارية فى :

•Dozy: Musulmans d'Espagne. I, p. 309.

(٢) رواه ابن سعيد : المغرب (مخطوط دار الكتب) ، ج ٣ ، ص ١١٠٢ .

جداره واختل سقفه ، وفصل المطر مستقبل ؟ ولكن أبى الله أن تكون هذه المكرومة في صحيفتك ! وقد جعلتُ عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك على رغم أنفك ، فيكون ما ينفق فيه منك ، وأجره لنا إن شاء الله^(١) . « ولكن عبد الرحمن كان إلى جانب ذلك كله ليناً لا يعسر على أحد التساط عليه ، فكان « نصر » الحصى صاحب سلطان واسع في دولته ، يفعل ما يشاء ، حتى لقد بلغ به الأمر أن استهان بمولاه وحاول « سمه بشرية ، لولا أن نبه عليها عبد الرحمن ، فقال له : « اشرها أنت ! » فشرها وخرج ، فأشار عليه طبيبه بلبن العنز فلم يوجد حتى هلك^(٢) » . وكانت « طروب » تسرف في الدلال عليه ، فلا يتخرج من التذلل لها ، وكان الشوق إليها ربما دفعه إلى ترك الجيش الصادر إلى الغزو والعود إليها مسرعاً ، وكانت تبرم الأمور مع نصر الحصى^(٣) » ، وكان يتبدل مع خواصه تبذلاً يتنافى مع جلال مركزه : ومن دلائل ذلك ما ذكره ابن حيان : « أن الأمير عبد الرحمن كان مصغياً لأحكام التنجيم ، ولم يكن عنده من المنجمين مثل « ابن الشمر » ، فلما عاد عبد الرحمن ذات مرة من الغزو قرر أن يبيت خارج قرطبة فيدخلها من الغد في موكب كامل ، فقال ابن الشمر : لتعلم أنك مغلوب على ذلك ! ولا بد لك الليلة من المبيت في قصرك ! فقال : والله لادخلته ! فقال : والله لتدخله مكرهاً ، ولأكون في هيئتي شبهك في طريق إليه ، وسوف ترى » ، مما يدل على جرأة ابن الشمر واستطالته عليه في الحديث . وكان يحيى بن يحيى الليثي فقيه الأندلس إذ ذاك يتصرف في أمور القضاء تصرف المستبد الجريء^(٤) .

وكانت نتيجة هذا الإسراف في اللين ، وهذا التبدل المفرط ، أن اختصم رجال الدولة على السلطان ، وجعل بعضهم يكيّد لبعض ، وقد رأينا « نصرا » الحصى يدبر اغتيال الأمير ، وكانت الحصومة حامية بين زرياب المغني ورجال الدولة ، وسنرى أنها سشتد بين زرياب هذا ويحيى الغزال ، وستنتهي بنفى

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٣ ص ١٠٧ ب ، ١١٠٨

(٢) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٣ ص ١٠٦ ب

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٣ ، ص ١١٣ .

يحيى إلى المشرق ، وكان الأمير فى هم دائم من ناحية أبنائه حتى كان يحبسهم فى قصور بعيدة ويضع عليهم الأحراس خوفاً منهم^(١) ، ويخيل لمن يقرأ أخبار هذه الفترة أنه فى بلاط بيزنطى تسوده الفتن والدسائس والتدبيرات .

ولا شك أن الحظ السعيد حالف عبد الرحمن ، فلم تضطرب عليه النواحي ، كما اضطربت على أبيه وجده ، وكما ستضطرب على ابنه محمد وحفيديه المنذر وعبد الله من بعده ، بل سادها هدوء يبدو لنا كأنه فاصل بين عهدين من الاضطراب الشديد . وربما كان لين عبد الرحمن ، وإسرافه فى الاستمتاع بشمرات جهود من سبقوه ، هو الذى أجمع النار فى نواحي الأندلس على عهود هؤلاء الأمراء الذين أتوا من بعده . وكان أهل الأندلس فى هذه العصور من أميل الناس إلى الوثوب والخروج على الطاعة ، وكانت طبيعة بلادهم تواتيهم على ذلك . ولكن البلاد لم تكن هادئة تماماً على عهد عبد الرحمن ، ولا شك أن ابن سعيد المغربى قد بالغ فى إحسان الظن ، بعصره حينما قال : « وكان سعيداً . قال ابن فرج : ما علمت أنه خرج عليه مع طول أيامه خارج خلا ما كان من موسى بن موسى بن قسى بن ناحية الثغر الأعلى ، ولم يشغله النعيم ووصل البعوث إلى دار الحرب . وكان مكرماً لأصناف العلماء محسناً إليهم ، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى كثيراً^(٢) ويشاوره » . وقد بالغ ابن سعيد فى هذا القول ، لأن الواقع أن المؤرخين سجلوا لنا كثيراً من الثورات وحركات العصيان فى أيامه^(٣) ، ثم إن

(١) المقرئ ؛ نفح الطيب ؛ ج ٢ ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ؛ ج ٣ ص ١١٧٢ .

(٣) أوجز « جوستاف ديركس » أخبار الاضطرابات التى نشأت فى نواحي الأندلس على أيام عبد الرحمن فيما يلى : ثورة موسى بن قسى فى سرقة وهزيمة لجند الأمير عبد الرحمن بمساعدة النفارينى ؛ واستقلال ماردة عن حكومة عبد الرحمن ، وثورة طليطلة وأهلها واستمعاؤم على الطاعة رغم ما بذله عبد الرحمن وأبوه الحكيم من جهود ؛ ثم استقلال طليطلة وإقليمها بين سنتي ٨٢٩ و ٨٣٧ م ومخالفتهم أرودينو الأول ملك أشتريس ؛ والحرب الخربة التى ثارت بين القيسيين والمصريين فى إقليم مرسية ؛ ثم غزوات النورمانين .

Gustav Dierks: Gesch. Spaniens von den frühesten Zeite bis auf die Gegenwart

النورمانيين هاجموا الأندلس على أيامه ، وهددوا الدولة الإسلامية تهديداً خطيراً ، لولا أن استطاعت حكومة عبد الرحمن ردهم عن البلاد بكفاية وحزم عظيمين ، وكان هجومهم أعظم ما تهدد مصير الدولة الأموية الأندلسية إلى ذلك الحين من أخطار .

٢

النورمانيون

نجد هؤلاء النورمانيين في جميع مراجعنا العربية المذكورين باسم « الأردمانيين » أو « المجوس » . فأما التسمية الأولى فواضحة الدلالة ، فالأردمانيون هم النوردمانيون أى أهل الشمال ، وقلب النون إلى همزة في أوائل أسماء الأعلام ليس بغريب في لسان أهل الأندلس ، فهم يقولون مثلاً « أربونة » . في « نربونة » . وأما تسمية النورمانيين المجوس فلم أجدها بين القدماء أو المحدثين من حاول تعليلها ، لأنهم لم يكونوا مجوساً ، وإن كان معظمهم في ذلك الحين وثنيين ، فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة^(١) . ولعل العرب قد أطلقوا عليهم هذه التسمية ، لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يمرون به : كانوا إذا نزلوا بمكان وعسكروا فيه أشعلوا ناراً ضخمة في معسكرهم ، وإذا فاجأوا بلداً أشعلوا النار في مبانيه ونهبوا ما فيه ، ويغلب على الظن أن المسلمين حسبوهم من عباد النار فسموهم بالمجوس .

ويجمع المؤرخون الإسلاميون على أنهم ظهرُوا أمام سواحل الأندلس لأول مرة في سنة ٢٣٠ هـ - ٨٤٤ م . ويحدد ابن سعيد تاريخ ظهورهم تحديداً دقيقاً فيجعله يوم « الأربعاء لأربع عشرة خلت من المحرم^(٢) من هذا العام » (٢٣٠ هـ سبتمبر ٨٤٤ م) ، وقبل أن نمضي في تتبع غزواتهم في الأندلس يحسن أن نتبعهم إلى بلادهم لنرى من أين أتوا بالضبط وأسباب طرقهم الأندلس في ذلك التاريخ بالذات .

Karl Weinhold: Altnordisches Leben, S. 244.

(١)

وانظر . ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ؛ ص ٦٦ .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ؛ ج ٣ ص ١٠٦ .

من أين أتى النورمانيون الذين أغاروا على الأندلس ؟ يعرف النورمانيون في التواريخ الأوروبية باسم الفايكنج *Vikings* ، وهي كلمة مشتقة من لفظ *Vik* أى الخليج أو « الفيورد » ، ويراد بذلك عادة أولئك القرصان الملاحين الذين يأوون إلى الخلجان ، ويستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها (١) . ومواطنهم الأولى في شبه جزيرة اسكنديناوة (السويد والنرويج) ، وشبه جزيرة جوتلند ، وما يجاورها من الجزائر (دانيمرقة) . وهم جنس آرى قديم سكن هذه النواحي منذ أزمنة سحيقة في القدم ، وقد ذكرهم يوليوس قيصر في بعض كتاباته في القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنهم لم يظهروا على مسرح التاريخ إلا من أوائل القرن السادس الميلادى . إذ قامت حرب بينهم وبين الفرنجة (٢) . ومنذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، أخذت أعداد النورمانيين النازلين في « جوتلاند » - وما يحيط بها من الجزائر - تتزايد تزايداً دفعهم إلى التماس الخروج فيما يجاورهم من البلاد . وكان شرملا في حروبه مع السكسون قد أوغل فيما وراء الراين حتى وصل شلزويج (٣) ، فرده الدانيون (الدانماركيون) عن بلادهم ، والتحموا لأول مرة في حرب مع الفرنجة وانتصروا عليهم ، فجراهم انتصارهم عليهم على التقدم في إمبراطوريتهم والتماس الخروج والمغنم فيها . وكانت زيادة السكان في اسكنديناوة قد دفعت بالنورمانيين في السويد والنرويج إلى الخروج إلى الغزو ، ولم يستطيعوا النزول بأراضى شرملا ، فأتجهوا في تيارين عظيمين نحو الشرق والغرب : عبر السويديون البلطيق ونزلوا عند مصب الدنيبر ، وعبر النرويجيون بحر الشمال إلى جزائر « شتلاند » و « فارو » و « إيرلندا » ، وتوقف اندفاع نورمان دانيمرقة إلى الجنوب حتى إذا مات شرملا ، وأخذت إمبراطوريته تتفكك ، زال ذلك الحاجز الذى كان يحول بينهم وبين فرنسا وإسبانيا وبلاد البحر الأبيض المتوسط ، فاندحدوا نحو الشرق والغرب والجنوب في ثلاثة تيارات عنيفة لا يكاد يقف في طريقها شيء .

ولكى نكون لأنفسنا فكرة عن قوة هجوم هؤلاء الشماليين ومدى التغير الذى كانوا قادرين على إحداثه في البلاد التى لا يجدون فيها ما يمنعهم من

(١) Allen Mawer : The Vikings, Cambr. Med. Hist. 111, p. 306.

(٢) John Danstrup : A Hist. of Denmark, p. 15.

(٣) Danstrup: op. cit. p. 17.

تثبيت أقدامهم على أرضها ، نذكر أن النورمانيين الذين خرجوا من السويد وعبروا البلطيق نزلوا عند مصب « الدنير » في أوائل القرن الثامن الميلادي ولم يلبثوا أن أنشأوا لأنفسهم مركزاً كبيراً عند بحيرة « لادوجا » ، ومن ثم أخذوا يتوغلون في روسيا هابطين مع الفولجا ، وأنشأوا بلداً كبيراً هو « هولجارت (نوفجورود) » وأسسوا مدينة « كييف » وسط جماعات الصقالبة (السلاف) التي كانت تسكن السهوب الروسية في ذلك القرن . وكان يقود هؤلاء النورمانيين السويديين قائد عظيم ، قادر هو روريك *Rurik* ، فاتخذ من « كييف » و « نوفجورود » مركزين لأعماله ، وسيطر على الصقالبة في هذه النواحي سيطرة بلغ من امتدادها أن لفظ روتسى *Ruotsi* — وهو الاسم الذى « أطلقه الفنلنديون على جيرانهم السويديين منذ أيامهم الأولى بحوض البحر البلطيق » — أصبح يطلق على الصقالبة الذين خضعوا لهم ^(١) . وعن « روتسى » نشأ لفظ « روس » *Ros* الذى عرف به صقالبة حوض الفولجا والدنير من ذلك الحين . وقد ظل السويديون يحكمون حوض الفولجا من سواحل بحر البلطيق إلى البحر الأسود وأسوار القسطنطينية بضعة قرون . وحاصروا القسطنطينية أربع مرات (٨٦٠ و ٨٨٠ و ٩٠٧ و ٩١٤ م) وعلموا عشائر السهوب الروسية إنشاء الدول ، ووجهوا تاريخهم كله توجيهاً جديداً ^(٢) .

وأما التيار النورمانى الذى خرج من النرويج واتجه غرباً ، فقد خرج من النرويج وبدأ ينوش سواحل إنجلترا وإيرلندا منذ أوائل القرن السابع ، حتى إذا بدأ القرن التاسع ازداد هجومهم عنفاً ، ولم يكن أقل من التيار السويدي الشرق شدة ولا بعد أثر . فقد غزوا إنجلترا ولم يلقوا مقاومة تذكر ، وكانت غزواتهم أول الأمر غارات سريعة لا تلبث أن تنقضى ، ثم أخذوا يستقروا على الشواطىء ابتداء من ٨٣٥ م ، وتشجع النورمانيون الدانيون ، فأقبلوا يشدون أزر بنى عمومهم النرويجيين ، وعم طوفان غزواتهم مع إنجلترا وإيرلندا بين سنتى ٨٥٠ — ٨٩٢ م حتى اضطرت ملوك « ويسكس » إلى أن يتنازلوا لهم عن جزء عظيم من جنوبى غرب إنجلترا

(١) انظر . تاريخ العصور الوسطى تأليف فيشر وترجمة زيادة والعربى ، القسم الأول ، ص ١١٥ . وعلى هذه الوثيرة انتقلت تسمية « العرب » من الفاتحين إلى كثير من الشعوب التي فتحوها بلادها كالمصريين مثلاً ، فصاروا يسمون بالعرب أو أولاد العرب .

يمتد من لندن إلى تشيستِر . ولم يرتد أذى النورمان عن إنجائنا إلا حينما نهض « ألفريد الكبير » ملك وسكس ، واستطاع هزيمتهم وتخليص إنجلترا من أذاهم حوالى سنة ٩٠٠ م ^(١) . أما فى أيرلندا ، فقد بدأت غزواتهم هناك منذ القرن السابع الميلادى : أقبلوا إليها من الشمال عن طريق جزائر « شتلند » « وفارو » ، وكان القائمون بها نورديون ، وقد أخذت هذه الغزوات أول الأمر شكل غارات سريعة : فكانوا ينزلون من مراكزهم حيث يجدون من السكان غرة يلتمسونها ، ويخطفون من القرى والمزارع ما يستطيعون حمله ثم يعودون إلى سفنهم . فلما أنسوا من أهل الجزيرة ضعفاً ، جعلوا يستقرون على ضفاف مصبات الأنهار ، ويتخذونها مراكز يتوغلون منها إلى الداخل ، وربما ابتنوا حصوناً ليحتموا بها من الأهلىن إذا ساروا إليهم . ثم أقبل الدانيون فى أثر إخوانهم النرويجيين ، وأخذوا يشنون على البلاد غارات عنيفة منذ سنة ٨٤١م ، وأخذت غاراتهم شكلاً عنيفاً خطراً فى سنة ٨٤٢م ، حيث غزوا أيرلندا بأسطول مكون من ٣٥٠ سفينة ، واستولوا على « دبلن » ، واشتدت وطأتهم على الأديرة والكنائس خاصة ، فلم يدعوا ديراً أو كنيسة فى متناول أيديهم إلا نهبوا نهباً ذريعاً . وانتهى أمرهم إلى الاستقرار فى أيرلندا ، وفى شمالها بوجه خاص ^(٢) .

وحوالى سنة ٨٣٤م ظهر من بين هؤلاء القراصنة النورمان المسيطرين على أيرلندا زعيم قوى يسمى « تورجيس Turgeis » غزا شمالى أيرلندا كله ، ونهب ميث Meath وكونوت Cnnaught ، واستطاع أن يسود الجزيرة وينشر فيها وفيما يجاورها من النواحي رعبه وأذاه ، وبلغت قوته أوجها سنة ٨٤١م حيث نهب دير أرماغ Abbacy of Armagh . وكانت الحرب دائمة بينه وبين الأيرلنديين ، فما زالوا به حتى وقع فى أيديهم وأغرقوه فى « لوخ أويل Loch Owel » سنة ٨٤٥م ، واشتد أذى النورمان بعد موته حتى لم تسلم من عاديته ناحية من نواحي أيرلنده ، وفى سنة ٨٥٣م أقبل « أولاف الأبيض » ملك النرويج إلى هذه الجزيرة ، وأطاعه جميع من كان فيها من النرويجيين والدانيين والأيرلنديين ^(٣) .

J. Danstrup: op. cit. p. 18.

Allen Mawer: op. cit. p. 311.

Allen Mawer, op. cit. p. 317.

(١)

(٢)

(٣)

ويذهب الأستاذ « ألين ماور » إلى أن سفارة يحيى بن حكم الغزال - التي ستحدث عنها - إنما أتت إلى أيرلندا وقابلت هذا الزعيم تورجاييس الذى ذكرناه ، ويذكر تأييداً لرأيه أنه كانت لتورجاييس هذا زوجة تسمى أوتا Ota أو Tota ، يرجح أنها « طود » أو « تود » الملكة النورمانية التي تحدث عنها الغزال ، وقال فيها شعراً كثيراً كما سيجىء (١) .

ولكن « جيورج ياكوب » - الذى ترجم نص رحلة الغزال إلى الألمانية وعلق عليه - لا يذهب هذا المذهب ، ويقرر أن الغزال لا بد أن يكون قد لقي ملك النورمان فى ناحية من نواحي جوتلاند ، واعتمد فى ذلك على ما قرره فابريسيوس قبله (٢) . ولم يحدد « دوزى » لهذا اللقاء مكاناً ، ولكنه يقرر أن النورمانيين الذين أغاروا على الأندلس كانوا دانيين ، وأنهم أقبلوا من دانيمرقة إلى بلاد الفرنج وأشتريس والأندلس ، فإذا كان الغزال قد سافر إلى ملك من ملوك النورمانيين ، فلا بد أن يكون هذا الملك ملك دانيمرقة ، ولا بد أن الغزال لقيه فى دانيمرقة نفسها (٣) . فلنلق نظرة على تطور الأحوال فى دانيمرقة فى ذلك الحين ، ولتتبع انسياح غارات النورمانيين الدانيين إلى الجنوب حتى وصلوا إلى بلاد المسلمين فى غرب إسبانيا وجنوبها .

٣

ظهور النورمانيين فى الأندلس

خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى كان شرلمان مشغولاً بحرب السكسون وزعيمهم « فيدوكيند » . ولم يكن يفكر فى المساس ببلاد النورمانيين الدانيين فى جوتلاند ، لأن حروبه مع السكسون . وانشغاله بتأمين دولته من غارات الجرمان فى كل ناحية ، واهتمامه بأموال إيطاليا والبابوية

Allen Mawer: op. cit. p. 317.

(١)

Georg Jacob: Arabische Berichte... p. 38 No. I

(٢) انظر

A. Fabricius, apud: Akten des Stockholmer Orientalisten-Kongresses. Section 1, Fascicule 1, Leiden 1891, 8. 121 ff.

Dozy: Recherches, 1, pp. 250-251.

(٣) انظر :

لم تكن لتسمح له بالفراغ اللازم للتدخل فى شؤون النورمانيين فى جوتلاند وما يليها شمالاً. ولكن حدث أنهم آووا «فيدوكند» بعد انهزامه سنة ٧٧٧ م ، فغزا شرلمان جنوب جوتلاند ، وأنشأ حصناً عند « إيتزهو » *Itzhoe* على نهر الألب ، فكانت نتيجة ذلك أن قام « جوديفريدوس » *Gode fridus* (= *Gotricus*) ملك دانيمرقة فى ذلك الحين وجمع جيشاً وأسطولا وأرصدهما بناحية سلسفيك *Slesvik* (= *Schleswig*) ، ليؤمن بلاده من غارات الفرنجة ، وأخذ يستعد لمهاجمة شرلمان ، ولكنه توفى سنة ٨١٠ م قبل أن يشرع فى ذلك . وجاء بعده الملك هارولد *Harold* ، وأفاد من استعدادات سلفه ، وساعده الحظ بموت شرلمان سنة ٨١٤ م ، فجزؤ على السير برجاله نحو الجنوب لمغاورة نواحي بلاد الفرنجة ، وتوالت غارات النورمانيين على النواحي الشمالية القاصية من دولة الفرنج . واستشعر هؤلاء العجز عن رد أولئك الغزاة المغامرين الذين كانوا يضربون ضربات سريعة ثم يعودون إلى بلادهم ، وحاولوا أن يتقوا شرهم بتحويلهم إلى المسيحية كما استطاعوا اتقاء شر السكسون بنشر المسيحية بينهم ، ولكنهم لم يوفقوا إلى شئ كبير ، على الرغم من أن «هارولد» نفسه دخل فى النصرانية سنة ٨٢٦ م^(١) . وزادت غارات الدانين على بلاد الفرنجة عنفاً خلال العشرين سنة التى تلت موت شرلمان ، لأن أبناءه احتربوا من بعده ، وحينما استقر الأمر للملك لوثار بن لويس التقي فى دولة الفرنجة صالح « هارولد » على أن يسكت عنه مقابل إعطائه جزيرة فالخيرين *Walcheren* . ولم يكف الدانيون عن مغاورة بلاد الفرنجة رغم ذلك . فأغاروا على جنوى الموزل سنة ٨٤٢ م ، وأخذت غاراتهم على شواطئ دولة الفرنجة تمتد إلى الجنوب شيئاً فشيئاً . ثم حدث نزاع على العرش الداني بين « هارولد » وزعيم آخر من أقاربه يسمى « هوريك » أو هاريك ، واستطاع هذا الأخير أن يتغلب على هارولد ، وينفيه ، وينادى بنفسه ملكاً على نورمان الدانيمرقة سنة ٨٤٤ م . ولما كانت غارات هؤلاء النورمان على الأندلس قد بدأت فى ذلك العام ، فلا بد أنها وقعت فى عهد « هوريك » هذا ، وقد ظل على العرش إلى

سنة ٨٥٤ م^(١) ، ومن ثم فهو الذى سفر الغزال إليه ولقيه كما سنرى . وكان الدانيون قد احتلوا ناحية فريزلاند (Friesland) من شواطئ بحر الشمال ، واتخذوها مركزاً دائماً لهم يخرجون منه للإغارة على شواطئ بحر الشمال وسواحل دولة الفرنجة الغربية وما يليها إلى الجنوب . ففي سنة ٨٤٣ م ظهروا عند مصب « المواري » ، واحتلوا جزيرة « نوارموتيه Noirmoutier » واتخذوها قاعدة حربية بحرية ، وفي أواخر هذا العام وصلت مراكبهم مصب جبروتنه « الجارون » ، ودخلته وعيثت بالبلاد الواقعة على مجراه الأدنى ؛ وهكذا وصل النورمانيون إلى أقصى شواطئ الفرنجة ودوقية أكويتين ، ولم يبق أمامهم إلا الانسحاب نحو الجنوب والإغارة على شواطئ إسبانيا الغربية . وقد بدأ هذا منذ أوائل سنة ٨٤٤ م .

ولما كانت دولة الدانيين تشمل جزءاً كبيراً من جنوب النرويج في ذلك الوقت ، فقد كانت بعض طوائف الغزاة والقرصان النورمانيين التي قامت بهذه الغارات على سواحل أوروبا الغربية آتية من النرويج ، وقد استنتج الباحثون ذلك من أن كتاب هذا العصر يسمون هؤلاء الغزاة في بعض الأحيان باسم الفستفالدنجي West faldingi ، أى الفستفالدنيين ؛ وفستفالد West fald مقاطعة في غرب النرويج كانت خاضعة للدانيمرقة في ذلك الحين^(٢) .

بدأت غزوات النورمانيين على شواطئ إسبانيا بغارة على سواحل « اشتريس » الشمالية ، فتركوا بالساحل عند بلدة جيخون^(٣) ونهبوا إقليمها . ثم واصلت سفنهم سيرها بجذاء الساحل حتى وصلت جليقية عند « برج هرقل » الذى كان يسمى إذ ذاك « فاروم بريجانتيوم Farum Brigantium » على مقربة من « كورونيا » (Coruna) ، وأغاروا على هذه الناحية^(٤) . ولم يكادوا يتوغلون داخل جليقية حتى تصدى لهم ملك اشتريس ردمير الأول Ramiro I ، وأرسل للقائهم قوات أجبرتهم على العودة إلى مراكبهم ،

(١) Allen Mawer, op. cit. III. pp. 313-315

Georg Jacob, op. cit. p. 38 No. 1. Eric Haric وهو يسيه

(٢) Allen Mawer, op. cit. III. p. 316.

(٣) Gegio. وأصل الاسم في اللاتينية

(٤) Espana Sagrada, XIX p. 13 sqq.

وحاربهم الأشتوريون في البحر ، وأحرقوا سبعين سفينة من سفنهم^(١) . ففضوا بما بقي لهم من المراكب وساروا بجذاء الساحل الغربى للأندلس الإسلامى ، فظهر وأمام أشبونة يوم الأربعاء أول ذى الحجة ٢٢٩ هـ - ٢٠ أغسطس ٨٤٤ م على ما ذكرناه .

ولم تكد مراكب النورمانيين تظهر في بحر أشبونة « حتى ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل الأشبونة (إلى عبد الرحمن الأوسط) يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس ، معها أربعة وخمسون قارباً . فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالتحفظ^(٢) » مما يدل على أن عبد الرحمن وعماله كانوا مقيمين على الأهبة دائماً حتى من هذه الناحية الغربية التي لم يهددهم منها أى خطر إلى هذه الساعة ، بل لم يكن ينتظر أن يهددهم منها أى خطر .

ولم ينتظر أهل الأشبونة حتى تأتيهم قوات الأمير ، بل نهضوا للقاء الغزاة الذين استولوا على البلد وعاثوا فيه ثلاثة عشر يوماً ، وتمكن أهل الناحية من هزيمتهم وإرغامهم على العودة إلى سفنهم . فساروا في البحر بجذاء الساحل يبحثون عن ناحية ينزلون بها ، وتفرقت سفنهم إلى جماعات صغيرة ، طرق بعضها « قادش » وبعضها « شذونة » ، ولكن معظم مراكبهم تجمعت أمام مدخل « الوادى الكبير » ، لتقوم بغارة مركزة على إقليم إشبيلية في أوائل سنة ٢٣٠ هـ - سبتمبر ٨٤٤ م .

ويصف ابن عذارى ظهورهم في مياه إشبيلية وطرقهم إياها بقوله : « فخرج المجوس في ثمانين مركباً كأنما ملأت البحر طيراً جوناً ، كما ملأت القلوب شجواً وشجوناً ، فحلوا بأشبونة ثم إلى « قادش » وإلى شذونة ، ثم قدموا على إشبيلية ، ونازلوها نزالاً إلى أن دخلوها قسراً ، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً ، فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام^(٣) » .
وقد أحدث ظهورهم في بحر إشبيلية ودخولهم مصب الوادى الكبير

Dozy: Recherches, I. p. 250.

(١)

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ؛ ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ؛ ج ٢ ص ٨٩ . وقوله « طيراً جونا » إشارة إلى أشترعة مراكب المجوس : وكانت سوداء .

ذعراً شديداً بين السكان يصفه ابن القوطية بقوله : « ففروا بين أيديهم ، وأحلى أهل أشبيلية أشبيلية ، وفروا منها إلى « قرمونة » وإلى جبال أشبيلية ، ولم يتعاط أحد من أهل الغرب مقاتلتهم ، فاستنفر الناس بقرطبة وما والاها ، وخرج الوزراء بأهل قرطبة ومن جاورها من الكور ، وقد كان استنفر أهل الثغر من أول حركة الجيوش عند احتلالهم أول الغرب ، وأخذهم بسيط لشبونة ، فحل الوزراء ومن معهم بقرمونة ، ولم يقدروا على مقارعة القوم (يريد مقارعتهم) لشدة شوكتهم . حتى قدم عليهم أهل الثغر^(١) » ، مما يفهم منه أن النورمان لم يستولوا على إشبيلية وحدها حينما طرقتها ، وإنما انساحوا في بسيطها ، واستولوا على كثير من نواحيها . ثم يقول ابن عذاري بعد ذلك ، فأقاموا ثلاثة عشر يوماً ، (ووقعت) بينهم وبين المسلمين بها وقائع ، ثم ساروا إلى قادس ثم إلى شذونة ، فكان بينهم وبين المسلمين وقائع^(٢) . ونزلهم بهذه الموانئ الإسلامية الثلاثة في فترة قصيرة يدل على أن أسطولهم - حينما وصل أشبونة - تفرق إلى شعب كثيرة ظل بعضها في أشبونة ونواحيها ، وطرق بعضها الآخر ما مرّ به من الموانئ على عهد النورمان ، حينما كانوا يغيرون على ناحية . ثم تجمع أسطولهم بعد ذلك في مدخل الوادي الكبير ، ليقوم بغارة كبيرة على أشبيلية ونواحيها . وكانت أشبيلية إذ ذاك ثاني مدائن الأندلس الإسلامي ، وكان إقليمها من أعمار الأقاليم وأكثرها قرى ومزارع .

وتقوم في مدخل الوادي الكبير جزيرتان إحداهما كبيرة تسمى « بالجزيرة الكبيرة » *Isla Mayor* ، والثانية « بالجزيرة الصغيرة » *Isla menor* ، وكانت تسمى كابتل *Capitel* وعرب المسلمون اسمها إلى « قبطيل » . وكانت هذه الجزائر الواقعة في مصبات الأنهار خير ما يجتذب قراصنة النورمانيين إلى دخولها والإيغال في البلاد عن طريق مجاريها ، وكانت « قبطيل » في ذلك الحين عامرة بمراعي الماشية والخليل والمزارع ، فعجل النورمانيون بالنزول إليها في ١٢ محرم سنة ٢٣٠ هـ - ٢٩ سبتمبر ٨٤٤ م ، وتحصنوا بها وأقاموا

(١) ابن القوطية : افتتاح ؛ ص ٦٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل (أورد هذا النص زاويل) ص ٢١ . ويؤيد ذلك ابن خلدون (زاويل ص : ٣٤ وما بعدها) ، والنويري (نفس المرجع ص : ٣٢ - ٣٣) .

بها معسكراً^(١) . وصعدت أربع من سفنهم فى النهر إلى مسافة أربعة أميال حتى أدركت قرية « قورية » *Coria del Ria* ، فأغاروا عليها ونهبوها ، وقتلوا من أهلها عدداً كبيراً .

وتالت الأخبار بذلك إلى عبد الرحمن فعجل بالعمل ، فاستنفر الناس من قرطبة ، وقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب ، فأسرع نحو إشبيلية ، وأردفه عبد الرحمن بخيل أخرى يقودها ثلاثة من أكبر قواده ، هم عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم^(٢) وعبد الواحد الإسكندراني ، فتلاحقوا بعيسى بن شهيد فى معسكره « بالشرَف » ، وهو حافة الهضبة المشرفة على أشبيلية وواديها ؛ ولم تحدد لنا المراجع المكان الذى عسكر فيه ابن شهيد بأكثر من ذلك . ولم يكتف عبد الرحمن بهذا ؛ بل أردف هذه القوات بأرسال من الرجالة . ثم تقدمت القوات إلى « قرهونة » ، فعسكرت بها استعداداً للقاء . وكان النورمانيون قد تقدموا فى أثناء ذلك من « قبطل » نحو الشمال ، وتجمعت سفنهم واخترقت البلد فى النهر ، وربع الأشبيليون حين رأوا سفنهم بأشرعتها السود تشق بلدهم ، وحاول بعضهم أن ينظم المقاومة فلم يستطع ، وأسرع عامل البلد ففر إلى قرهونة ، وأرسل الأشبيليون بضع مراكب لتلقى مراكب النورمانيين وتوقف تقدمها ، فاستقبلها هؤلاء بوابل من الأسهم النارية ، فلم تلبث النار أن اشتعلت بأشرعتها ، واحترقت المراكب . وعلى إثر هذه الهزيمة تسارع الناس إلى الهرب من البلد ، ونزلها المحجوس ، وأخذوا ينهبونها نهباً ذريعاً ، وفتكوا بمن وجدوه من أهلها ، ومضوا على ذلك أسبوعاً كاملاً ، لم يغادر النورمانيون خلاله طفلاً أو شيخاً إلا قتلوه ، وأسروا عدداً عظيماً حملوه فى السفن . فلما امتلأت أيديهم من الغنائم وسفنهم من الأسرى تحركوا بمراكبهم عائدين نحو « قبطل » ، ليضعوا غنائمهم وأسراهم بها فى مأمن ،

(١) جاء فى « الروض المعمار » تحت مادة « قبطل » : « بالأندلس ؛ مفرغ وادى إشبيلية فى البحر ويعرف أيضاً بالمعسكر ، لأنه موضع عسكر فيه المحجوس واحتفروا حوله خندقاً أثره باق إلى الآن » .

عبد النعم الحمرى ، الروض المعمار ، ص ١٥٠ . وقد كتب « الروض » حوالى ٨٦٦هـ ، مما يدل على أن آثار المحجوس كانت باقية فى الأندلس إلى ذلك الحين .

(٢) أورد ابن عذارى اسم هذا القائد : ابن وسيم ، وقد صححتها من القطعة الصغيرة من « المقتبس » لابن حيان التى بين أيدينا .

فلما تم لهم ذلك عادوا إلى البلد ، فوجدوه قاعاً صنفصفاً لا يعمره أحد ، خلا جماعة من أتقياء الشيوخ لجأوا إلى مسجد فقتلوهم ، فسمى هذا المسجد من ذلك الحين « مسجد الشهداء » .

ولما كان معظم رجالهم قد ركبوا من الخيل التي غنموها من قبطيل ، فقد نظموا أنفسهم فرقاً من الخيالة ، وأخذوا يغيرون على ما جاور أشبيلية من النواحي ، ولم يستطيعوا التصعيد في النهر نحو قرطبة ، لأن التيار فيما يليها عنيف لا يصعد فيه بسهولة^(١) .

وقد وصف لنا ابن القوطية ما فعله المحوس بجامع أشبيلية وصفاً أسطورياً بعض الشيء ، ولكنه يصور لنا أفاعيلهم في البلد و « الوقع » الذي خلفوه في نفوس أهل الأندلس ، قال : « وكان عبد الرحمن بن الحكم يرى في نومه عند تمام جامع أشبيلية أنه يدخله فيجد النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً مسجى في قبلته ، فانتبه مغموماً ، فسأل أهل العبارة عن ذلك ، فقالوا : هذا موضع يموت دينه . فحدث فيه إثر ذلك ما كان من غلبة المحوس على المدينة ... وحدث غير واحد من شيوخ أشبيلية أنهم كانوا يحمون سهامهم في النار ، ويرمون بها سماء المسجد ، فكان إذا احترق ما حول لسهام سقط ، وأثار السهام في سمائه إلى وقتنا هذا ظاهرة ، فلما يتسوا من إحراقه جمعوا الخشب والخضر في أحد البلاطات ليدخلوا النار وتتصل بالسقف ، فخرج إليهم من جانب المحراب فتى فأخرجهم عن المسجد ، ومنعهم دخوله ثلاثة أيام ، حتى حدثت الواقعة فيهم . وكان المحوس يصفون الحدّث أخرج لهم بجمال تام^(٢) » .

وبلغ عبد الرحمن وقوف قواته عند « قرمونة » ونقاعسهم عن لقاء النورمانين ، فأرسل فتاه « نصراً » في قوات جديدة أقبلت من الكور ، وتجمعت في قرطبة في ذلك الحين^(٣) ، وجعل إليه القيادة . فتقدم « نصر » حتى لحق ببقية القواد عند « الشَّرَف » ، وأقاموا جميعاً عند « قرمونة » لا يستطيعون أمام النورمانين شيئاً .

(١) أكملت المعلومات التي تقدمها المراجع التي بين أيدينا بالتفاصيل الواردة في مخطوطة « مقتبس » ابن حيان ؛ ومن :

Lévi Provençal: Hist. de l'Esp. Mus. 1, pp. 185 sqq.

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٦ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ، ص ٢٠٩ .

ولعل السبب في عجز قوات عبد الرحمن عن لقاء هؤلاء القراصنة هو هذا الرعب الشامل الذي نشره في غرب الأندلس كله ، بسبب ما أنزلوه بأشبيلية من التخريب والقتل من ناحية ، وبسبب أسلوبيهم في مغاورة القرى والبلاد من ناحية أخرى ؛ فقد كانوا يرسلون قطعاً من الخيل في غارات سريعة ، تضرب ضربات قاسية ، وتقتل وتنهب وتسبي وتحرق ، ثم تعود قبل أن يثوب للناس رأى في النهوض إليهم . ثم إن استعمالهم النار في الحرب روع الأندلسيين ترويعاً بالغاً ، فقد كانوا يرمون أسهماً من نار تشر اللهب في كل ناحية . وقد روعوا نواحي «الوادي الكبير» ، وأنزلوا بأهله فظائع شديدة . ولم تعرف القوات الإسلامية كيف تلاقي هذه الجماعات من القراصنة الذين يسيطرون على مدخل النهر وشواطئه ، ويشنون الغارات الخاطفة ثم يعودون إلى معسكرهم على الشاطئ أو في الجزر ، فوقفوا في «قرمونة» يتأملون هذه الكارثة دون أن يعرفوا السبيل إلى دفعها .

ويبحث عبد الرحمن عن قوات جديدة يرسلها ، فلم يجد إلا قوات الثغر الأعلى التابعة لموسى بن قسّ . وموسى هذا هو موسى بن موسى بن فرتون Fortunio ، ثاني الأمراء المسلمين من أسرة بني قسّ القوطية التي اعتنقت الإسلام ودخلت في ولاء الخليفة الوليد بن عبد الملك . وكان موسى في أول أمره عاملاً على «تطيلة» Tudela ، وكان يتولى قيادة قوات عبد الرحمن الأوسط الذاهبة إلى الحرب في بلاد إفرنجة ، مما يلي جبال البربات (التي تسمى خطأ جبال البرانس) ، ثم اختاف مع أحد رجال عبد الرحمن ، وخلع الطاعة ، وحالف جاره ملك نبرّه (نقار) ، واشترك معه في حرب جيوش الإمارة الأموية ؛ وظل على هذا العصيان ، حتى وجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى مصالحته ، ليستعين به على حرب النورمان (١) . وبعث عبد الرحمن إلى موسى يطلب نجده ، واضطر إلى التلطف معه «وتذكيره إياه بولائه للوليد بن عبد الملك ، وإسلام جده على يديه ، فلان

(١) انظر : سبستيان السامتي ، فقرة ٢٥ - ٢٦ .

ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .

ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

بعض اللين وقدم في عدد كثيف (١) .

فلما وصل موسى بن قسي بمن معه من قوات أهل « الثغر الأعلى » ، لم يشأ أن ينضم إلى قوات الإمارة وأهل الكور التي كانت معسكرة بناحية « قرمونة » ، فعسكر بمن معه على مقربة منها ؛ ولعل السبب في ذلك هو أنه لم يرضَ أن يكون تحت راية « نصر » الفتي . ثم اجتمع هو ورجاله ببقية القواد الآخرين وسألوهم عن حركة القوم ، فأعلموهم أنها تخرج لهم في كل يوم سرايا إلى جهة فيريش (٢) ولقنت (٣) ، وإلى جهة قرطبة ومورور (Moron) ؛ فسألوا عن ممكن بمكان يمكن (٤) أن يستتر فيه بقرب حاضرة إشبيلية ، فدُلُّوا على قرية كنتش معافير (٥) (Quintos) التي بقبلى إشبيلية ، فخرجوا إليها في جوف الليل ، ومكنوا (يريد كنوا) فيها ، وبها كنيسة أولية صعدوا فيها « نظوراً » في أعلاها على رأسه حزمة حطب . فلما انبلج الصبح خرجت لهم يد (أى طابور سريع الحركة) فيها ستة عشر ألفاً منهم يريدون جانب « مورور » ، فلما قابلوا القرية أشار إليهم (أى إلى المسلمين الكامنين) الناظور ، فتوقفوا عن الخروج إليهم حتى أبعادوا ، فلما أبعادوا قطعوا بينهم وبين المدينة ، وحمل السيف على جميعهم ، ثم تقدم الوزراء فدخلوا إشبيلية ، وألفوا العامل فيها محصوراً في قصبتها ، فخرج إليهم وتراجع الناس (٦) ، وبهذا استطاع موسى بن موسى بن قسي أن يقضي على هذه القوة النورمانية التي ذهبت نحو مورور ، ويبدو أنها

(١) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .

(٢) ذكرها الإدريسي (انظر طبعة دوزي ، ص ٢٠٧) ، وهي في منتصف المسافة تقريباً بين إشبيلية وقرطبة ، واسمها ها معرب عن اللاتينية Firrix .

(٣) ليس المقصود هنا لقنت Alicante الميناء المعروف بشرق الأندلس ، بل Lecanto التي تسمى أيضاً Fuente de Cantos في إقليم إشبيلية .

(٤) في الأصل : « بمكان أن .. »

(٥) كنتش تعرب لاسمها باللاتينية Quintos ، وقد رسمها عبد المنعم الحميري قنتش بالالف ؛ ومعافير نسبة إلى القبيلة العربية المعروفة .

(٦) ابن القوطية ، افتتاح ٦٣ - ٦٤ ، وهو يذكر أن عامل إشبيلية كان محاصراً في قصبتها ، بخلاف ما يذكره ابن حيان من أن هذا العامل فر من إشبيلية إلى قرمونة لأول نزول النورمان فيها على ما ذكرناه . انظر :

Cf, Lévi-Provençal: Hist. de l'Espagne Musulmane, 1, p. 154.

كانت أكبر السرايا النورمانية ، لأن مركزهم في ناحية إشبيلية تأثر تأثراً ظاهراً بعد هزيمتها . وانتهر القواد فرصة هذا النصر وما أحدثه من الذعر بين القرصان فأسرعوا إلى إشبيلية ودخلوها وخلصوا عاملها ، وأخذ أهلها الذين كانوا قد فروا منها يعودون إليها .

أما السريتان النورمانيتان الأخريان اللتان اتجهت أولا هما نحو « لقنت » والثانية نحو قرطبة ، فقد بلغت الثانية قرية « بنى الليث » وعشت بها .

وكان النورماند قد فارقوا إشبيلية عند دخول المسلمين إياها فلم يبق فيها إلا قوة صغيرة منهم . فلما بلغتهم أنباء هزيمة البعث الذى كان قد سار نحو « مورور » ، وأبصروا خيل المسلمين تدخل إشبيلية أدركهم الخوف ، فتركوا معسكرهم ، وصعدوا إلى مراكزهم التى كانت راسية في مدخل « الوادى الكبير » عند جزيرة قبيل ، وهناك أمنوا على أنفسهم من أن أن يقضى عليهم الأندلسيون قضاء مبرماً .

واستعدوا للدفاع عن أنفسهم بظواهر أشبيلية وما يابها من النواحي إلى الجنوب ، ومضت جماعة منهم . إلى « قورية » Coria del Rio على اثني عشر ميلاً من إشبيلية ، حيث قتلوا عدداً عظيماً من أهلها . واتجهت جماعة ثالثة منهم نحو طَبْلَاطَة Tablada على ميلين من إشبيلية^(١) ، وظهروا بالغداة بموضع يعرف « بالفخارين » ، وأقبلت قوات إسلامية نحوهم فصعدوا إلى سفنهم . فلما رأوا أن القوات الأندلسية تتبعهم وتضيق عليهم الخناق نزلوا إلى البر واعتكوا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى^(٢) . ثم عاد المجوس إلى مراكزهم ، وسارت جماعة منهم إلى

(١) طَبْلَاطَة Tabliata . هكذا رسمها ابن عذارى وابن الأثير والنويرى ، وزاد الأول أن المسافة بينها وبين إشبيلية اثنا عشر ميلاً ، كما يقرر ذلك ابن عذارى وهو تحديد غير دقيق ، لأنها أبعد من ذلك ، وهي على نهير صغير غربى الوادى الكبير (انظر مادة طلياطة في الروض المغطار ، ص ١٢٨) . وقد ذكرها ابن حيان في المقتبس طَبْلَاطَة Tablada على هذه الصورة في تاريخه ، وطَبْلَاطَة هذه تقع فعلاً على اثني عشر ميلاً شمالى إشبيلية ، ولهذا عدلت إلى « طبلاته » على الرغم من أن بقية النصوص التى بين أيدينا تكتبها « طلياطة » في منتهى الوضوح . وقد فضل ليني پروفنسال صيغة ابن حيان أيضاً

Cf: Lévi-Provençal, op. cit. 1. p. 154.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

« شذونة » Medina Sidonia ، فزلوها ونهبوا ما استطاعوا نهبه منها ، وخرجت سرية منهم وطرفت قادش Cádiz

وتسارعت قوات المسلمين تلاحقهم ، لتحول بينهم وبين الاستمرار في الأذى ، وكانت جماعات منهم لا تزال تسيطر على الوادى الكبير عند إشبيلية ، وكان معسكرهم في قبطيل حصيناً مليئاً بالغنائم والأسرى ، ولم يكونوا ينتظرون إلا أن يتراخى المسلمون في تعقب آثارهم لكي يعودوا إلى التصيد في الوادى الكبير ليصلوا إلى قرطبة وإقليمها العامر بالقرى والمزارع والعمران .

ورأى المسلمون أن خير وسيلة يقاومونهم بها هي أن ينصبوا لهم المجانيق على ضفتى النهر ، لترجم سفنهم بالحجارة إذا أرادت السير ، وأخذت هذه المجانيق ترمى مراكب المحجوس بالحجارة . وتوافت الأمداد من قرطبة ، وتشجع المسلمون ، وشددوا التضييق على مراكب المحجوس المحصورة في النهر ، وأخذت مراكبهم تتراجع نحو الجنوب في اتجاه إشبيلية ، والمسلمون ، رصد لها على شطى النهر ، يرمونها بالحجارة والنار .

وعول القائد محمد بن رستم على أن يرغم المحجوس على النزول إلى البر وملاقاة المسلمين في موقعة برية فاصلة ، فشدد الرمي بالمجانيق عليهم ، وأغرق كثيراً من سفنهم وقتل منهم نحو خمسمائة . فلم يسع المحجوس إلا النزول إلى البر ، ودارت المعركة الحاسمة بينهم وبين المسلمين عند « طبلاطة » ، يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ - ١١ نوفمبر ٨٤٤ م ، « قتل فيها منهم خلق كثير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً ، وعلق من المحجوس بإشبيلية عدد كثير ، ورفع منهم في جذوع النخل التى كانت بها ، وركب سائرهم مراكبهم (١) » .

وعلى أثر هذه الهزيمة الشديدة عول المحجوس على اختراق إشبيلية في النهر والتراجع إلى قبطيل . وتجشموا في ذلك عناء عظيماً ، حتى إذا بلغوا « قلعة الزعواق » شمالى إشبيلية توافت إليهم فلول إخوانهم الذين كانوا قد تفرقوا في غارات على النواحي ، فأصعدوهم معهم في السفن .

و « اجتهد المسلمون في حربهم ، ومضوا يناهشونهم ويرمونهم بالحجارة

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٠

والأوظاف ، فلما صاروا تحت إشبيلية بميل صاحوا إلى الناس : إن أحببتهم الفداء فكفوا عنا ! فكُفَّ عنهم ، وأباحوا الفداء فيمن كان عندهم من الأسارى ، ففدى الأكثر منهم . ولم يأخذوا في فدايتهم ذهباً ولا فضة ، إنما أخذوا الثياب والمأكول ، وانصرفوا عن إشبيلية^(١) .

وكانت جماعة منهم قد انقطعت عن البقية ، فلم تستطع اللحاق بها فشردت إلى ناحية لبَلَّة Niebla ، ومنها إلى الأشبونة ، حيث ركبوا السفن ، « وانقطع خبرهم » كما يقول ابن عذارى^(٢) .

ولم تطل غارتهم تلك على غرب الأندلس من أشبونة إلى إشبيلية ونواحيها إلا نحو شهرين^(٣) ، إذ بدأت في أوائل المحرم سنة ٢٣٠ ، وانتهت في أواخر صفر من نفس السنة (سبتمبر - أكتوبر ٨٤٤ م) . ففجأت الأندلس على غرة وعلى غير أهبة لحرب البحر . ولم يكن أهلها ليتوقعوا أى هجوم من هذه الناحية الغربية ، فما هو إلا أن وطئ النورمان البلاد ، وأوغاوا في ناحية الأشبونة ، حتى نهضت لجرهم الإمارة الأموية في حزم وكفاية بدلان على انتظام أمورها وقدره أميرها عبد الرحمن ورجاله على تلافى الأخطار من أية ناحية . فقد بدأوا فأرسلوا القوات القائمة في قرطبة ، فلما استبانوا عدم كفايتها استدعوا قوات الكور وأرسلوها إلى ناحية إشبيلية ، وكان العدو قد انتقل إليها . فلما رأوا أن القواد الذين أرسلوا وقفوا أمام النورمانيين موقف المتحير الذى لا يعرف سبيل العمل ، عرفوا أنه ليس للأمر إلا رجال الثغر الأعلى ، ممن دربوا على حرب النصارى و « المجوس » ، وتعلموا كيف يلاقون السرايا الخاطفة في حرب العصابات الجبلية التى كانت نارها لا تخمد بين أهل الثغر الإسلامى الأعلى ، مما يلى سرقسطه إلى الشمال ، ومن يجاورهم من أمراء النصارى . وقد كان عبد الرحمن ورجاله على الحق فيما ارتأوا ، لأن موسى بن موسى بن قسى لم يكد يصل إلى ناحية « قرمونة » حتى سأل عن اتجاهات سرايا النورمانيين ، وترصد لإحداها ،

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٣) يذكر ابن عذارى (نفس الصفحة) أنهم أقاموا في ناحية إشبيلية اثنين وأربعين يوماً .

و « قتلها » كما يقول ابن القوطية . وأتاح ابن قسى بذلك الفرصة لقوات الإمارة ، فدخلت إشبيلية ، وطردت النورمان منها ، وخلصت عامل البلد من الحصار الذى كان يعانيه . وكانت هذه الضربة التى وفق إليها موسى بن موسى ابن قسى كافية لإشاعة الاضطراب فى خطط النورمانيين وإرغامهم على الانقلاب من الهجوم إلى الدفاع ، فإذا تم هذا فقد تولى الهجوم عليهم من كل ناحية ، وتفظن الأندلسيون إلى إمكان محاربتهم بنصب المجانيق على شواطئ النهر وقذف مراكبهم بالحجارة والنار ، وما زالوا بهم حتى ألجأهم إلى النزول إلى البر وملاقاتهم فى موقعة برية حاسمة عند طبلاطة ، انهزم النورمانيون فيها انهزاماً كاملاً . واضطروا إلى طلب الصلح ومغادرة البلاد .

ولو لم ينهض الأندلسيون للقائهم بهذه النجدة لأقاموا فى البلاد واستوطنوها — أو بعض أجزائها — ، كما فعلوا فى إنجلترا وإيرلندا وأجزاء كثيرة من دولة الفرنجة وسواحل البحر البطلى ونواحي روسيا ، وكما سيفعلون بعد ذلك فى ناحية إسلامية أخرى لم تستطع رد عاديتهم ، وهى صقلية التى استقروا فيها وأزالوا دولة الإسلام منها ، وأنشأوا بها دولة نورمانية شاملة جنوبى إيطاليا خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) .

ولو جاز لنا أن نتخذ مقاومة النورمان مقياساً لقوة دول ذلك العصر من الناحية الحربية ، لاستطعنا أن نقرر أن دولة الإسلام فى الأندلس كانت أقوى الدول الأوربية فى ذلك الحين ، وأكثرها همة ونشاطاً وكفاية . وإذا ذكرنا ما كانت الخلافة العباسية تعانيه إذذاك من الاضطراب والفوضى ، بسبب ضعف الخلفاء وتواتر وثوب حكام النواحي وثورة الزنج ، وما كانت الدولة البيزنطية تعانيه إذذاك قبيل قيام الأسرة السورية (الإيسورية) ، لاستطعنا القول بأن دولة الأمويين فى الأندلس كانت أقوى دول العالم المعروفة إذذاك ، وأكثرها كفاية من الناحية الحربية ، فضلاً عما امتازت به على غيرها من النظام الإدارى والنهوض الحضارى الذى أشرنا إليه ، وهذه كلها حقائق ذات أهمية لا تخفى قيمتها فى تاريخ الحضارة البشرية .

لم ينته أمر هذه الغارة النورمانية بمغادرة المحوس الأندلس وعودتهم إلى بلادهم ، بل خلفت في تاريخ الأندلس الإسلامي آثاراً بعيدة المدى ، أولها أنها نهبت أذهان أمراء قرطبة إلى ضعف سواحلهم الغربية والجنوبية الغربية وتعرضها للغزوات من ناحية البحر ، فشرعوا في تحصين بلاد هذه النواحي وتأمينها من كل مفاجأة ، وأخذوا ينشئون الرباطات على الساحل من « أشبونة » إلى « أرقش » . وتسارع الأندلسيون ، بما عرف فيهم من حمية للدين وإقبال على الجهاد إلى هذه الرباطات وعمروها . وقامت — من ذلك الحين — على هذا الساحل كله الرباطات يقيم فيها المرابطون المحتسبون ، والمخارس يقيم فيها الحراس يراقبون الشواطئ (١) .

واهتم عبد الرحمن ببناء سور إشبيلية ، ولم يكن لها سور قبل ذلك (٢) ، فأمن البلد بفضل هذا الإجراء . وسرى أن النورمانيين لن يبلغوا منها مبلغاً كبيراً حينما يفجأونها بعد ذلك بعشر سنوات ، في إمارة محمد بن عبد الرحمن .

وثاني هذه الآثار هو ميلاد البحرية الأندلسية ، وهو حادث عظيم الأثر في ذاته . ويقول ابن القوطية بصدد البدء في إنشاء هذه القوة البحرية : « واستعد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فأمر بإقامة دار صناعة بإشبيلية ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط . فلما قدموا المقدمة الثانية سنة ٢٤٤ هـ ، في أيام الأمير محمد ، تلقوا في مدخل نهر إشبيلية في البحر ، فهزموا فحرقوا ثم مراكب ، فانصرفوا (٣) » وهي عبارة على جانب عظيم من الأهمية ، إذ تعين ميلاد البحرية الرسمية الحربية لإمارة قرطبة ، وتبين لنا أن عبد الرحمن جمع لها الرجال من أهل الشواطئ ، وأغدق عليهم الأموال ، وأنشأ دور الصناعة وأخذ يبنى السفن ويسلحها بما ينبغي لها من الآلات والنفط . وقد تم إنشاء هذه البحرية في زمن قصير جداً ، وسرى أثرها عند عودة النورمانيين إلى الأندلس ، بل سيكون ميلادها بدءاً لسيطرة الأندلس الإسلامي على غرب البحر الأبيض المتوسط .

(١) انظر Lévi-Provençal: op. cit. ١, p. ١57. على أنه لم يذكر مرجعه عن نشأة هذه الرباطات في ذلك الحين ، والغالب أنها من « مقتبس » ابن حيان .

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .

(٣) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٧ ، وكذلك Lévi-Provençal, op. cit. ١, p. ١57.

وسيداً هذا الأسطول نشر سيادته بغزو جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة ، بعد ذلك بسنوات قلائل ؛ وسيلعب هذا الأسطول الأندلسى دوراً خطيراً فى تاريخ الأندلس الإسلامى ، وفى تاريخ البحر الأبيض المتوسط كله ، لأن هذه النواة التى كونها عبد الرحمن لم تلبث أن تمت على عجل بفضل إقبال الأندلسيين من أهل الشواطئ على العمل فيها ، فما هى إلا سنوات حتى نشأت دار صناعة جديدة أخرى فى قرمونة^(١) ، وأعقبها دور جديدة فى لقنت ومرسية وبلنسية . وكثرت المراكب الحربية وأصبحت لها إدارة خاصة وقواد مختصون بشؤونها ، ولم تلبث أن سيطرت على غرب البحر الأبيض المتوسط حتى جزيرة صقلية وسواحل تونس . وأكمل المسلمون بذلك السيطرة على البحر الأبيض المتوسط كله شرقاً وغرباً ، وهذه فى ذاتها حقيقة تاريخية على أعظم جانب من الأهمية ، وسبكون هذا الأسطول عماد خلفاء بنى أمية فى السيطرة على المغرب ومناهضة الفاطميين . وبعبارة أخرى : كانت غارة المحوس هذه ميلاداً نقوة إسلامية كبرى ، وإرهاصا بحادث تاريخى بعيد الأثر .

٤

سفارة يحيى بن حكم الغزال إلى ملك النورمانيين

وكأنما أراد عبد الرحمن أن يؤمن بلاده من نوازل هؤلاء القراصنة العتاة ، فلم يكد يلمس عند بعض رجالهم رغبة فى الصلح والمهادنة حتى قرر إرسال سفارة إلى ملكهم . ومراجعنا الإسلامية غامضة جداً فيما يتصل بالأسباب التى حدث بعبد الرحمن إلى إرسال هذه السفارة ، ويفهم من كلامها إجمالاً أن ملك النورمانيين أرسل رسلاً يطلب الصلح ، فيقول ابن دحية فى « المطرب » : « ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المحوس يطلب الصلح ، بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول

(١) عبد المنعم الحميرى : الروض المطار ، ص ١٩٢ (مادة قرمونة) .

فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك ، فأمر الغزال أن يمضى فى رسالته إلى رسل ملكهم... (١) . ولأننا نستطيع تعرف الأسباب التى دعت ملك النورمانيين إلى مراسلة عبد الرحمن فى الصلح ، لأنه كان المعتدى ، ولأن بلاده لم تكن لتخشى شيئاً من ناحية الأندلس . ولكننا نعرف أن ابن دحية يأخذ أخباره — فى هذا الجزء على الخصوص — عن تاريخ لتمام بن علقمة الذى عاصر هذه الأحداث ، مما يجعلنا أميل إلى قبول كلامه فى هذا الموضوع ، وإن كان فى حاجة إلى ما يؤيده من المراجع الأخرى .

وربما كان هذا هو الذى حدا بليثى برؤفئسال إلى إنكار موضوع هذه السفارة جملة ، لأنه لم يجد لها ذكراً مفصلاً فى القطعة التى بين أيدينا من « مقتبس » ابن حيان متعلقة بتاريخ عبد الرحمن الأوسط ، وإليك رأيه فى موضوع هذه السفارة :

قال بعد أن ذكر تفاصيل سفارة يحيى الغزال إلى تيوفيل إمبراطور القسطنطينية : « ويذهب بعض مؤرخى العصور المتأخرة من المسلمين إلى أن يحيى الغزال هذا قد كلفه عبد الرحمن الأوسط بأن يسير فى سفارة جديدة مع زميله الذى صاحبه فى سفارته إلى تيوفيل — إلى ملك النورمانيين ، وذلك فى سنة من السنوات التى أعقبت عودته من القسطنطينية ، لكى يحول بين النورمانيين وبين أية محاولة جديدة للنزول فى الأندلس . وهم يزعمون أن الشاعر ورفيقه قد قاما بمهمتهما فى شمال أوروبا بعد رحلة مليئة بالمخاطر ، وعادا إلى قرطبة بعد تسعة أشهر . وهذا الموضوع كله إن هو إلا أسطورة مخترعة من أولها إلى آخرها ، وقصة هذه السفارة المزعومة إلى اسكنديناوة قد اخترعت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر (الميلاديين) ، وتبدو لنا مشكوكاً فى صحتها شكاً شديداً إذا كلفنا أنفسنا عناء بحثها فى عناية : إن العناصر — العجيبة بعض الشيء — التى تتكون منها ، مستعار معظمها من فقرات سجلت منذ القرن العاشر من رحلة يحيى الغزال إلى الإمبراطورية البيزنطية . لقد كان مسلك الإمبراطور البيزنطى حيال قرطبة وغارة النورمانيين الجريئة على إسبانيا سبباً فى ذبوع تفاصيل خيالية معينة ، وانتهى

(١) ابن دحية ، المطرب ، ص ١٠٥ ب .

وقلها القرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٦٣٠ .

الحادثان بالاختلاط والامتزاج في أذهان الشعب في الأندلس ، ونشأت
عنه أسطورة مشتركة أخذت تشوّه الحقيقة التاريخية شيئاً فشيئاً مع
الزمن... (١) .

وواضح أن الأساس الذي بنى عليه بروفنسال هذا الرأي هو أنه لم
يجد فيما بين يديه من روايات ابن حيان وغيره من مؤرخينا شيئاً ذا بال
عن سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين ، وثانياً أنه وجد أن أهم مصدر لأخبارها
هو كتاب « المطرب » لابن دحية الإشبيلي ، وهو من أواخر القرن الثاني عشر
الميلادي . فأما عدم ذكر ابن حيان إياها فلا يقوم حجة ، فقد أغفل
ابن حيان أشياء كثيرة أثبتّها غيره ، وأثبت كذلك أشياء أخرى كثيرة
من الأساطير الشعبية التي انتشرت بين الناس في عصره (٢) . ولو كان
إغفال أحد كبار مؤرخينا لذكر حادث من الأحداث يكفي لنفيه ، لكان
ولابد أن ننفي حوادث إغارات النورمانيين على الأندلس جملة ، لأن صاحب
« الأخبار المحموعة » لم يشر إليها بحرف واحد . ولو كانت سفارة الغزال
إلى ملك النورمانيين أسطورة شعبية أخذت تنمو منذ القرن الثالث الهجري
(التاسع الميلادي) ، لأشار إليها ابن حيان كما أشار إلى غيرها من الوقائع
الخيالية الأخرى التي أخذ أخبارها من أفواه معاصريه . ثم إن علاقات
الأندلس الدبلوماسية مع النورمانيين انقطعت بعد ذلك بسنوات قلائل ، لتحل
محلها الحرب والعداوة من جديد ، بينما اتصلت علاقات الأندلس الدبلوماسية
ببيزنطة وحفلت سجلات ديوان قرطبة بأوراقها ، فوجد ابن حيان ما ينقله
عنها ، في حين لم يجد في السجلات الرسمية عن علاقات أمراء قرطبة بالمجوس
إلا أخبار الحرب والقتال فأثبتها .

ولو أن سفارة يحيى الغزال إلى بلاط ملك النورمانيين كانت مجرد أسطورة نشأت
عن سفارته إلى بلاط بيزنطة ، لوجدنا أبا الخطاب بن دحية والمقرئ يطيلان
الحديث عن الأولى ويوجزان في الثانية . ولكننا نجد العكس تماماً ، فهما
لا يذكران سفارة الغزال إلى بيزنطة إلا في سطور ، في حين أنهما يتحدثان
صفحات كثيرة عن سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين ؛ ولا يفسر هذا

(١) انظر Lévi-Provençal, op. cit. ١, ١٧٧-١٧٨.

(٢) انظر الجزء الثالث من ابن عذارى — طبعة لبني برنسال .

إلا بأن السفارتين صحيحتان . ثم ما هو الرأى فى هذه الأشعار التى تنسب إلى الغزال ، وفيها ذكر « تود » الأميرة النورمانية ذكراً صريحاً ؟ لا يمكننا القول بأنها قيلت أول الأمر فى « تيودورا » زوج الإمبراطور تيوفيل ، ثم وجهها الناس إلى « تود » بعد ذلك . وما القول فى هذه التفاصيل المادية التى يذكرها ابن دحية عن الأحوال فى بلاد النورمانيين ، وهى تفاصيل يؤيد صحتها العارفون بتاريخ النورمانيين القدماء ؟ وماذا كان يدعو الناس إلى تكلف تحديد طريق عودة الغزال عن طريق شنت ياقوب ، وهو طريق لم يكن مألوفاً لرحالة المسلمين ومسافريهم ؟ ثم ما الرأى فى أن الذى رافق يحيى الغزال إلى بلاد النورمانيين لم يكن هو « يحيى صاحب المنيقلة » الذى صاحبه إلى القسطنطينية ، بل رجل يسمى يحيى بن حبيب ، ولو كان هو صاحب المنيقلة لأشار إلى ذلك أبو الخطاب ، وقد كان « المقتبس » بين يديه ينقل منه ويراجعه ، كما هو ثابت من كلامه (١) ؟ .

لا نستطيع إذن أن نحكم على سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين بأنها مجرد أسطورة ، بل لا مناص لنا من قبولها كحقيقة تاريخية ، وهذا لا يمنع من الظن بأن بعض تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاط بيزنطة قد اختلطت بها ، وذلك أمر لا يقلل من أهميتها على أى حال .

* * *

فإذا انتهينا إلى ذلك استطعنا أن نمضى فى دراسة تفاصيل رحلة الغزال إلى ملك النورمانيين ، ونحب أن نضيف إلى ما قلناه فى هذا المقام شيئاً : هو أن هوريك ملك النورمان كان متصل العلاقات بمن عاصره من ملوك الفرنجة ، وكانت رسله تتردد إليهم بالكتب كما يقول « ألن ماور » فى مقاله الذى أشرنا إليه مراراً ، فتوجيهه الرسل إلى عبد الرحمن ليس بالأمر الغريب الذى يذكره الواقع . وما دام الرجل قد أرسل كتباً وسفارات إلى جيرانه ملوك الفرنجة ، فلماذا نستبعد أن يكون قد وجه رسلاً إلى عبد الرحمن الأوسط أعظم معاصريه وأقواهم ؟ وليس بمستبعد أن يكون دافعه إليه مجرد

(١) راجع تفاصيل سفارة يحيى الغزال إلى بلاط الإمبراطور تيوفيل فى :

Lévi Provençal: Un échange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IX. siècle. dans: Byzantion XII, 1937, p. 1-24.

الرغبة في الحصول على بعض طرف الأندلس من الثياب والآنية ، وقد رأينا النورمانيين حريصين على الحصول عليها ، وكان في الأندلس في ذلك الحين من طرف الصناعة ولطائف الثياب والخيرات ما كان حرياً بأن يدفع ملك النورمانيين إلى الرغبة في الحصول على بعضها ، وقد بعث إليه عبد الرحمن بشيء كثير منها ، فسر بها سروراً عظيماً كما سنرى ؛ ونحن نعرف ما كانت عليه بلادهم إذذاك من قلة الخيرات ونُدرة المصنوعات ... ثم إنه جرى على أن يكتب إلى جيرانه بعد الغزوات ، ليبرئ نفسه من تبعاتها قائلاً إن الذين قاموا بها كانوا جماعة من الخارجين على طاعته، فلماذا نستبعد إرساله نفرًا من رجاله إلى عبد الرحمن، ليبرئ نفسه من أوزار ما فعل القرصان ببلاد الأندلس؟ ولا شك أن عبد الرحمن تلقى رسل ملك النورمان بسرور عظيم ، لأن الأندلس لقي من غاراتهم بلاء شديداً ، ولم يكن أحب إلى أمير مسلم كعبد الرحمن من اتصال سلمى بملكهم ، تكون نتيجه كفاً أذاهم وعدوانهم عن المسلمين . فلم يكتف بحسن استقبال رسل ملكهم ، بل رأى أن يسير إليه رجلاً ذكياً حاضراً البديهة لطيف المدخل كيحيى الغزال ، ليتعرف أمورهم ويكسب ودهم ، ويأتيه من خبرهم بالنبا اليقين . ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن قد عرف عداءهم مع الفرنجة وحروبهم معهم ، فأراد أن يجتذبهم إلى جانبه ، وقد كان الفرنجة قد نهضوا على أيامه يحاولون التوغل في الأندلس وإحياء « الثغر الإسباني » في ناحية برشلونة . ولو جاز لنا أن نأخذ بحكم المنطق في الحقائق التاريخية لقلنا إن دولة الإسلام في الأندلس كانت أحوج إلى سفارة إلى ملك النورمانيين منها إلى سفارة إلى إمبراطور بيزنطة ، لأن الأول كان عدواً للأندلس جديراً بأن يتقى شره بالسفارات والألطف ، في حين لم يكن الثاني غير إمبراطور بعيد لا تربطه بدولة الإسلام في الأندلس أية علاقة حقيقية (١) .

(١) والأستاذ ليفي پروفنسال نفسه يتساءل عن الدوافع التي دفعت الإمبراطور تيوفيل إلى إرسال سفارته إلى عبد الرحمن الأوسط ، على قلة ما كان يربطهما من المنافع الحقيقية ، ويناقش هذه الفكرة مناقشة طيبة ، ولكنه لم يستطع أن ينكر حدوث هذه السفارة ، لأن مصادرها العربية بين يديه لا تحتمل الشك .

Cf. Lévi-Provençal: Cordoue et Byzance au IX. siècle dans: Islam d'Occident... pp. 82-83.

وليس إلى الشك سبيل في أن ملك النورمانيين الذي ذهبت إليه السفارة كان هوريك (أو هاريك = إريك) ملك دانيمرقة ، لا الزعيم تورجيس كما ظن « ألن ماور » . فقد كان الغزاة نورمانيين دانيمرقيين ، وفيهم جماعة نرويجية كما بينا ، وكانوا قد خرجوا أول الأمر من « فريزلاند » ، وكانت في طاعة هوريك ، وتمادوا مع شواطئ الفرنجة وشواطئ اشتريس حتى وصلوا إلى شواطئ الأندلس . أما القول بأن يحيى الغزال سافر إلى « تورجيس » زعيم النورمانيين في أيرلانده ، فلا يؤيده إلا أن الغزال سمى زوج ملك النورمانيين الذي لقيه باسم « تود » ، وهو قريب من « أوتا » أو « توتا » زوج « تورجيس » على الحقيقة ، وهو دليل ضعيف . وسنرى من تفاصيل رحلة الغزال أنه يستبعد أن تكون تود التي تغزل فيها الغزال زوجا لهوريك ، وأن الغالب أنها كانت مجرد أميرة كبيرة من أميرات بلاطه .

* * *

وقبل أن نمضى في ذكر تفاصيل رحلة يحيى الغزال إلى دانيمرقة ، ينبغي أن نقف لحظات عند شخصية هذا الرجل الذي اختصه عبد الرحمن بالسفارات مع معاصريه من الملوك ، لأن ذلك يلقي ضوءاً على ما كانت حكومة قرطبة في القرن التاسع الميلادي تتصوره من الصفات والخلال اللازمة لمن يسفرون بين الملوك ، ويصور لنا لذلك جوانب طيبة من الحياة الأندلسية في قرطبة في ذلك الحين .

يصفه ابن حيان في المقتبس بأنه « كان حكيماً الأندلس وشاعرها وعرافها » ، ويذكر المقرئ « أن حسبه يرتفع به إلى بني بكر بن وائل ، أى أنه كان من أبناء البيوت العربية الأصيلة » ، ويصفه تمام بن علقمة بالجمال والطول والعرض . ويبدو أن الرجل كان ذا جمال ظاهر ، لأن الناس لقبوه بالغزال لجماله ، وكان الأمير عبد الرحمن يعجب بحسنة ، فقد دخل عليه مرة فقال عبد الرحمن : جاء الغزال بحسنة وجماله .

وطلب أحد الوزراء الحاضرين إلى يحيى أن يميز شعر الأمير فقال بديهة : قال الأمير مداعباً بمقاله جاء الغزال بحسنة وجماله

(١) رواه المقرئ في فتح الطيب ، ج ١ ، ص ٦٢٩ .

(٢) رواية ابن دحية في « المطرب » ، انظر النص بعد ذلك .

أين الجمال من امرئ أربى على متعدد السبعين من أحواله^(١) ،
 مما يدل على أن الرجل كان محتفظاً بهيئته الجميلة رغم سنه العالية ،
 وكان جماله هذا من الأسباب التي حلت بعبد الرحمن إلى انتدابه للسفارة
 بينه وبين الملوك ، فقد حسن موقعه منهم وسهل عليه اجتلاب رضاهم ،
 وكان إلى جمال وجهه رجلاً طويلاً عريضاً « مجتمع الأشد » ظاهر الصحة
 كثير النشاط.

ومن الطريف أن معظم ما لدينا من أخباره يتصل بشيخوخته دون صباه
 وشبابه ، وأقدم ما لدينا من أخباره يرجع إلى ما بعد الأربعين من سنى حياته .
 وقد كان عمره سنة ٢٣٠ هـ خمسين سنة ، أى أنه ولد سنة ١٨٠ هجرية
 ٧٩٤ م في مطلع إمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل^(٢) ، وأُفيع على أيام
 الحكم الربضي ، واكتهل على أيام عبد الرحمن الأوسط . فكيف لم ترد عنه
 أخبار أو أشعار إلا بعد كهولته ؟ وكيف اتفق أن كل ما لدينا من هذه
 الأشعار لا يزيد على بضع قصائد ، بينما يحدثنا المؤرخون أن الرجل كان
 مكثراً يقول الشعر في كل مناسبة ، بل إن المقرئ يذهب إلى أنه ألف تاريخاً
 لأمرء الأندلس إلى عهده شعراً^(٣) ؟ لا بد أن شعراً كثيراً لهذا الشاعر
 المفلطور قد ضاع . ولا يصدق هذا عن الغزال وحده ، بل ينطبق على
 معظم شعراء الأندلس إلى أوائل القرن الخامس ، وأو جمعنا كل ما لدينا
 من شعر الأندلسيين فيما بين القرن الثاني والقرن الرابع لما ملأت كراساً متوسط
 الحجم .

يذكر المقرئ أن يحيى الغزال « كان من كبار رجال الدولة »^(٤) ،
 ولكنه لم يذكر لنا شيئاً عن الوظائف التي كان يتقلدها ، ولم يرد له ذكر
 بين أسماء القواد والوزراء والحجّاب ، مما يدل على أنه كان دون هؤلاء

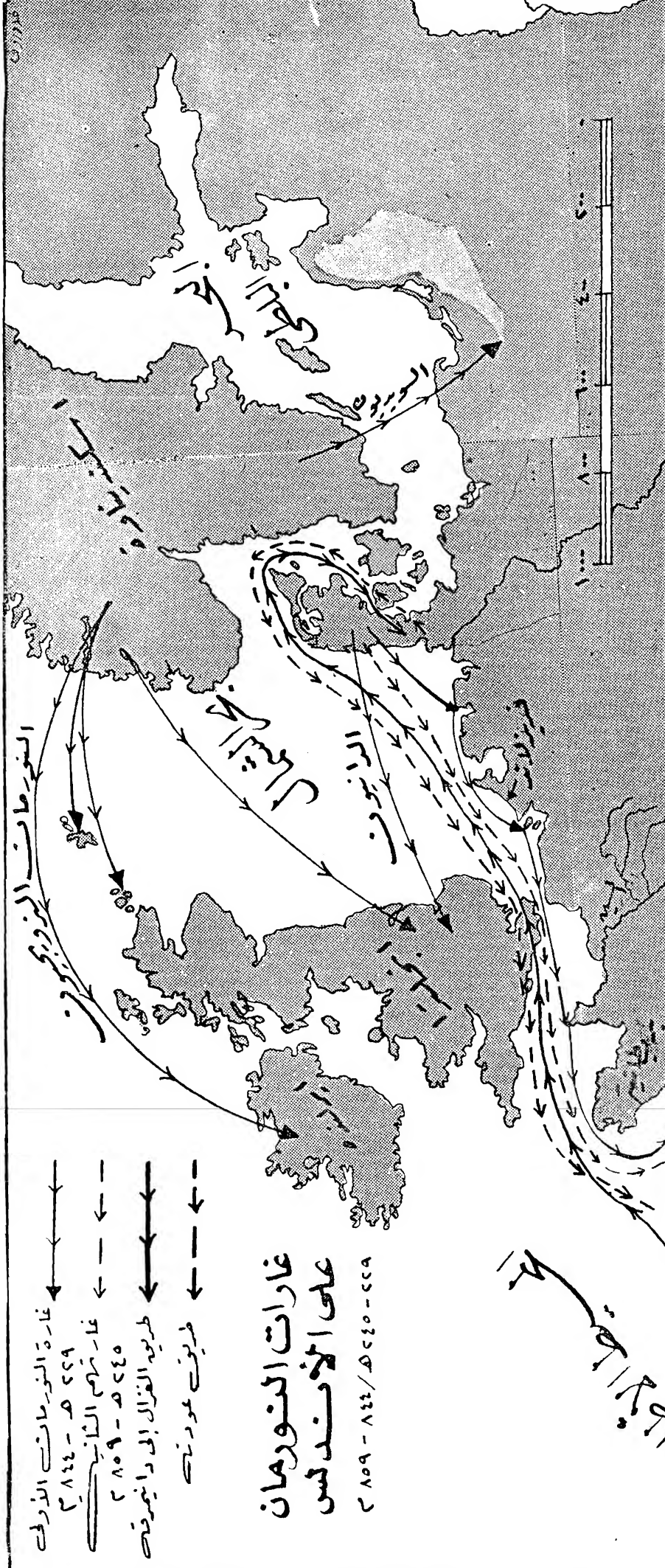
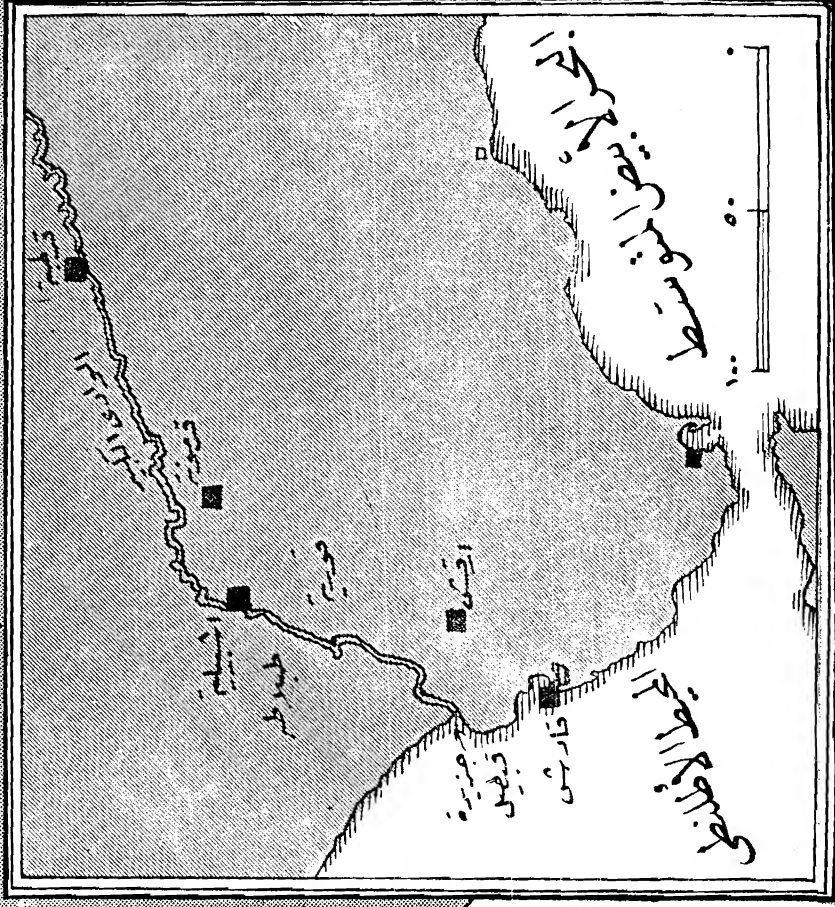
(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) لا في أيام عبد الرحمن الداخل كما يقول المقرئ (ج ١ ، ص ٦٢٩) .
 وللغزال بيت من الشعر يقول فيه :

أدركت بالمرملوك أربعه وخامساً هذا الذي نحن معه
 أى أنه توفي في أيام الأمير المنذر .

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) المقرئ ، نفح ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .



- ← غارة النورمان في الأندلس ٨٤٩ هـ - ٨٥٩ هـ
- ← غارة النورمان في الأندلس ٨٤٩ هـ - ٨٥٩ هـ
- ← غارة النورمان في الأندلس ٨٤٩ هـ - ٨٥٩ هـ
- ← غارة النورمان في الأندلس ٨٤٩ هـ - ٨٥٩ هـ
- ← غارة النورمان في الأندلس ٨٤٩ هـ - ٨٥٩ هـ
- ← غارة النورمان في الأندلس ٨٤٩ هـ - ٨٥٩ هـ

غارات النورمان على الأندلس ٨٤٩ - ٨٥٩ هـ

الخارطة التيضف منقسطا

مرتبة في الوظائف الرسمية . ولأبي الخطاب بن دحية رواية تدل على أن يحيى بن حكيم كان يتقلد الوظائف الإدارية في الكور ، وذلك حيث يقول إن عبد الرحمن « كان ولاه قبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها في الأهرء » . ولم تكن تلك الوظيفة من الوظائف الكبرى على أى حال ، مما يدلنا على أن الغزال كان يتولى هذا النوع من الوظائف . وتدل بقية الخبر على أن الغزال كان رجلاً رحيماً القلب واسع الذهن حسن التصرف ، فقد اشتدت الحاجة وغلا السعر ذلك العام في الأندلس ، فما كان من الغزال إلا أن « وضع يده في البيع حتى أتى على ما كان عنده في الأهرء » ، ثم إنه نزل الغيث ورخص الطعام ، فأعلن السلطان بما صنع الغزال من البيع ، فأذكره وقال : « إنما نعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها في الجهد فإذا صنع الخبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمنها واشتروا به طعاماً واصرفوه في الأهرء إلى وقت الحاجة إليه ^(١) » . فرفض الغزال أن يدفع المال ، وعرض أن يرد مقادير الغلال التي تصرف فيها ، وثار الخلاف بين الأمير والغزال ، وانتهى الأمر بانتصاره ، وقال للأمير شعراً يسترضيه ، فأعجب به بعض حاشية الأمير وقالوا له :

« لقد أنصنمك الغزال في قوله :

لقد أحسن الله إلينا معا إن ك ان رأس المال لم يذهب
فإنه لو ذهب المال أيها الإمام أى ذمة كانت تفي به للغزال ، مع ما هو عليه من الإهمال ^(٢) وقلة المال ؟ » . والعبارة الأخيرة تفسر لنا السبب في قعود الغزال عن التقدم إلى الوظائف الكبرى ، فقد كان معروفاً بالإهمال والاستبداد برأيه . ثم إن الإشارة واضحة الدلالة على فقره وقلة ماله ، ولو كان ممن يتولون الوظائف الكبيرة لما كانت هذه حاله .

وكل ما يمكننا قوله عن مركز الغزال في المجتمع القرطبي هو أنه كان من أولئك المساتير ذوى الحسب الذين وهبهم الله ملكة خصبة في الشعر ، ونصيلاً طيباً من العلم ، وشيئاً كثيراً من خفة الروح واللاطف وحضور البديهة . فكان يلي الوظائف أحياناً ، ويخلد إلى الدعة ونظم الشعر والتردد على مجالس السلطان أحياناً أخرى ، فوصفوه بالحكيم ، بل بحكيم الأندلس في عصره .

(١) و (٢) أبو الخطاب بن دحية ، المطرب ، ورقة ١٠٤ .

وانتشرت أحاديثه وذاعت دعاياته ، ويبدو أنه كان في صباه ماجناً مفرطاً في المجون ، لأن كثيراً جداً من شعره يدل على عدم تحفظ واستهتار . وكان هذا مما حبيه إلى معاصريه ، فقد كان أهل الأندلس إلى ما قبل إمارة عبد الرحمن أجلاًفاً ببعض الشيء ، ولم ترق أخلاقهم ولم تسد مجتمعاتهم رقة الحضارة إلا منذ أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط .

هذا وشاعرية الغزال أمر ذائع معروف ، ولا يتسع المقام هنا لإيراد نماذج منها ، ويستطيع القارئ أن يقرأ أطرافاً لطيفة من هذا الشعر عند ابن حيان والمقرئ وابن دحية في المواضع التي أشير إليها فيما ساف ، وستقرأ أطرافاً من هذا الشعر في أخبار رحلته ، تدلنا على مكانه من الشاعرية وجودة النظم ولطف الإلهام . وربما كان السبب في عدم توليه الوظائف الكبرى هو ما عرف عنه من نزوع إلى الحرية في أقواله وأفعاله ، فكان لا يتحفظ في رأى يقوله ، وربما خلق بفكره إلى آفاق تقترب به من الشك في مسائل العقيدة . ومن أمثلة ذلك قوله بصدد البعث بعد الموت :

يا ليت شعري أى شيء محصل ير ى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأى ؟ فهل للقلوب النائمات عيون ؟
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعه شبه الوقار سكون ؟
بل ذكر المقرئ أن يحى ذهب مع المرأة على الدين إلى حد أنه
أراد معارضة سورة (قل هو الله أحد) ، فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها ، فأتاب إلى الله فعاد إلى حاله (١) .

بيد أن الظرف كان أغلب على الرجل من الإلحاد ، وكانت مقطعاته القصيرة في الهجاء والسخرية من الناس من أشيع الشعر على ألسنة الأندلسيين . وكان له كلف خاص بهجاء الفقهاء ، وهى ظاهرة لم ينفردها الغزال بين شعراء الأندلس ، فقد كان الأندلسيون يكرهون الفقهاء ، وينكرون عليهم سلطانهم واحتجائهم الأموال ، وكان شعراؤهم لا يدعون فرصة للنيل منهم إلا ابتدروها ، وكان يحى من أشد الناس عليهم ، وله فيهم شعر لطيف (٢) .

(١) المقرئ ، ج ١ ، ص ٦٣٣ .

(٢) الأستاذ محمد عبد الله عتار . يحى الغزال ، شاعر وفيلسوف وسياسى . مجلة الثقافة ،

العدد ٢٦١ ، ص ١٥ وما بعدها .

وطبيعى أن يكون رجل هذه صفاته مرشحاً لمهام السفارة إلى الملوك إذا دعا إليها داع ، فله من شرف المحتد وحسن الأدب وسعة الذهن وخفة الروح وجمال الهيئة ما يمهد له السبيل إلى قلوب الملوك ورجال حاشيتهم ، وقد وفق الغزال فى المهمتين الدبلوماسيتين اللتين وصلتنا أخبارهما أحسن توفيق : وسنقتصر الكلام هنا على سفارته الثانية إلى هوريك ملك انورمانين الدانيمركيين . وينبغى ألا ننسى أن « السفارات » فى هذه الأيام كان لها معنى آخر غير ما نفهمه نحن من لفظ « سفارة » ، فلم تكن وظيفة من وظائف الدولة الثابتة الدائمة ، وإنما كانت مهمة طارئة يكلفها الخليفة أو الأمير إلى من يريد ، وتنتهى بانقضاء المهمة . ولم يكن الأمراء يتخبرون لها رجالاً « سياسيين » ، وإنما رجالاً ذوى حسب ونسب وطلاقة لسان ، كيجي بن حكم البكرى الغزال هذا ، وأسامة بن منقذ ، وفخر الدين عثمان الاستادار ، وغيرهم من سفراء ملوك المسلمين^(١) .

صدر يحيى بن حكم البكرى الغزال فى سفارته على أثر وصول رسل من قبل هوريك ملك الدانيمركة « يطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجبهاتها ، ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول بها^(٢) » . فإذا كانت غزوة النورمانين التى فصلنا أمرها قد انتهت فى صفر سنة ٢٣٠ هـ - أكتوبر ٨٤٤ م ، فلا بد أن شهوراً انقضت بعد ذلك حتى عاد من عاد من النورمانين إلى بلاده ، وحدث هوريك بأمر الدولة الأندلسية الإسلامية وما وقع لهم معها ، فتاب لهوريك رأى فى مراسلة عبد الرحمن . ولما كان النورمانيون لا يخرجون فى رحلاتهم البعيدة إلا فى مطالع الربيع ، فالغالب أن رسل هوريك كانوا فى قرطبة فى ربيع سنة ٨٤٥ م ، أى فى شوال أو

(١) سفارة أسامة بن منقذ بين صلاح الدين الأيوبي والمنصور أبى يوسف يعقوب الموحدي معروفة ، أما غير الدين الاستادار فقد سفر بين سلطان مصر وملك برشونة سنة ٧٠٣ هـ (انظر السلوك للعقريزي ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٩٥١) . وتاريخ السفارات الإسلامية فى حاجة إلى دراسة ، ويعتبر يحيى الغزال نموذجاً للسفير الإسلامى ، وهو يحقق كل الشروط التى اشترطها « ابن الفراء » فى السفير .

انظر : أبو الحسين على بن محمد المعروف بابن الفراء : كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح الرسالة والسفارة (طبعة القاهرة ، ١٩٤٧) ، ص ١٣ - ١٧ .

(٢) ابن دحية . المطرب . ص ١٠٣ .

ذى القعدة من سنة ٢٣٠ هـ . فإذا قدرنا أن هؤلاء الرسل أقاموا في قرطبة شهراً أو شهرين ، كان في استطاعتنا القول أن يحيى الغزال صدر في رحلته في أوائل سنة ٢٣١ هـ ، أى في أواخر صيف سنة ٨٤٥ م .

اصطحب يحيى الغزال في رحلته تلك رجلاً يسمى يحيى بن حبيب ، وأنشأت لها الحكومة « مركباً حسناً كامل الآلة » ، وحملهما عبد الرحمن رداً على رسالة ملك النورمانيين مع هدية حسنة ، ولم يقدم لنا ابن دحية نص ذلك الرد . ولندع أبا الخطاب يروى رحلة الغزال إلى بلاد الدانمرك بأسلوبه الطريف الممتع^(١) ، ولنكتف بالتعليق عليه بعد ذلك .

(١) التسخة الخطية من « المطرب من أشعار أهل المغرب » موجودة في لندن . وتوجد منها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية . وقد أخذنا منها نص رحلة الغزال (من ص ١٠٤ وما يليها) . وقد أوردها ابن دحية في سياق ترجمته ليحيى الغزال ، وقد نشرها لأول مرة زيل في كتابه .

Alexander Seippel: *Rerum Normannicarum fontes Arabici* (Christiania 1896). ص ١٣ - ٢٠

وقد جمع فيه الفقرات التي أوردها كتاب العرب عن أهل أوروبا بما فيهم النورمانيين . وقد استعملت نصوصه التي أوردها فيما سبق من أجزاء البحث . ونشر النص كذلك دوزي في :

Dozy: *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyeen-Age* (2. éd. Leyde 1881) appendice pp. LXXI sqq.

وترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها في نفس الكتاب (ص ٢٦٧) وما يليها . وقد ترجمها إلى الألمانية وعلق عليها :

Georg Jacob: *Arabische Berichte von Gesandeten an germanische Fuerstenhoefe aus dem q. u. 10. Jhdrt.* Leipzig u. Berlin. 1910.

رواية أبي الخطاب بن دحية عن رحلة الغزال إلى بلاد الدانمرك

قال^(١) ، ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس يطلب

(١) القائل هنا هو أبو الخطاب بن دحية ، واسمه الكامل مجد الدين أبو الخطاب عمر ابن الشيخ الإمام أبي علي حسن بن علي سبط الإمام أبي البسام الفاطمي المعروف بذي النسيين دحية والحسين . وقد اختصه ابن خلكان بترجمة هذا نصها « كان من أعيان الفقهاء ومشاهير الفضلاء ، متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها . واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ، ولقي بها علماءها ومشايخها . ثم رحل إلى بر العدو ودخل مراکش ، واجتمع بفضلائها . ثم ارتحل إلى إفريقية ، ومنها إلى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق . وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين ، وسمع بواسط من أبي الفتح محمد بن أحمد الميداني ، ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران . كل ذلك في طلب الحديث والاجتماع بأئمنه والأخذ عنهم ، وهو في تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه . وكانت ولادته في مستهل ذي القعدة ٥٤٤ هـ — ١١٥٠ م ، وتوفي يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م »

ابن خلكان . وفيات ج ١ ، ص ٥٤٤ .

وقد تفضل زميلي الدكتور جمال الشيال فنقل لي بضعة أسطر أوردها عن ابن دحية جمال الدين بن واصل في « مفرج الكروب » جاء فيها أن ابن دحية كان فيمن وفد إلى الكامل سلطان مصر « وتقدم عنده ولازمه ، وبني له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي ، وجعله شيخها » ، وختمها بقوله « وكان في مجد الدين جرأة وحدة »

ابن واصل . مفرج الكروب (مخطوطة باريس) ص ٣ .

ويجمع بقية من ذكر ابن دحية من المؤرخين على انتقاد خلقه ، فعلاوة على هذه الإشارة الموجزة التي وردت في عبارة ابن واصل قرأ عنه في تذكرة الحفاظ للذهبي : « وكان على كثرة علمه وفضائله معروفا بالمجازفة والدعوى العريضة ، وأنه يدعى أشياء لا حقيقة لها ، ومن هؤلاء من اختبر لفظه أو امتحن فهمه . . . وعده مدلسا » . (انظر ج ٤ ، ص ٢٠٥) . ولم أجد في أي نص من هذه النصوص إشارة إلى كتابه « المطرب في أشعار أهل المغرب » الذي أخذنا عنه الكلام عن يحيى بن الغزال ورحلته . ويبدو من مجموع كلام هؤلاء المشارقة أنهم كانوا يبغضونه ، وسنلاحظ من سياق حديثه أنه هو الآخر يكرههم — شأن الكثيرين من الأندلسيين .

الصلح^(١) بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجبهاتها . ثم هزيمتهم بها ، وقتل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك . فأمر الغزال أن يمشى في رسالته مع رسل ملكهم ، لما كان الغزال عليه من حدة الحاطر وبديهة الرأي ، وحسن الجراب والنجدة ، والإقدام والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب . فنهض إلى مدينة « شلب » ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة . وروجع ملك الجوس على رسالته وكوفي على هديته . ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذى جاءوا فيه مع مركب الغزال ، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخلى فى البحر - الذى هو حد الأندلس فى آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بألثوية^(٢) - هاج عليهم البحر ، وعصفت بهم ريح شديدة ، وحصلوا فى الحلد الذى وصف الغزال فى قوله :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلبين وانبثت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك الموت إلى أيننا عن حيال
فراينا الموت رأى الـ عين حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا يا رفيق رأس مال^(٣)

= وقد نشر الأستاذ عباس الغزوى كتباً صغيراً لابن دحية عنوانه « التبراس فى خلفاء بنى العباس » قدم له بمقدمة طيبة عن ابن دحية . وانظر عن ابن دحية أيضاً : الخطط للمقرئى (ج ٣ ، ص ٢٧ . طبعة مطبعة النيل . وفيها يذكر أنه « أول من ولى مشيخة دار الحديث الكاملية فى القاهرة » .

وكذلك : ياقوت : لإرشاد الأريب . ج ٧ ص ١٢٤ .
(١) طلب الصلح هذا من جانب ملك الجوس غير مفهوم . انظر التعليق بعد نهاية النص .
(٢) لم يستطع « جيورج ياكوب » تحقيق هذا اللفظ ، وعاقى عليه دوزى بقوله : « الكلام يدور هنا من غير شك حول رأس « سان فنسنت » Saint Vincent » ، ولم أجد فى أى موضع ذكر لهذا الجبل الذى يذكره المؤلف . وكان القدماء يسمون رأس سان فنسنت هذا Promentarium Sacrum ، وكان الإسبان يسمونه فى القرن الثانى عشر Promentario del Algarbe . وكان العرب يسمونه « كنيسة العقاب » . انظر الإدريسى ، ص ٢١٨ ، و :

Dozy, Recherches, I, p. 270 n. 1.

(٣) لا بد أن الغزال يصف بهذه الأبيات مروره ببحر المانش وما قاساه من أمواجه ، وقد مر الغزال فى هذا البحر فى شهر سبتمبر ، وهو شهر تتعالى فيه أمواجه وتكثر أخطاره . وقد أورد المقرئ فى نفع الطيب هذه القصيدة وأضاف إليها أبياتاً أخرى .

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار ، وركوب الأخطار ، ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها ، فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم وأجهزوا أنفسهم ، وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم ، فأعلمه بلحاق الرسل معهم ، فسر بذلك ووجه فيهم . فمشوا إليه إلى مستقر ملكه ، وهي جزيرة عظيمة^(١) في البحر المحيط ، فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهي ثلاثمائة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس . وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس . وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار . ودينهم الذي كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار^(٢) ، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار^(٣) ، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم . فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم ، وأخرج إليهم من يلقيهم ، وانجفل المجوس لرؤيتهم ، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم .

ثم إنهم أنزلوا في كرامة . وأقاموا يومهم ذلك ، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته فاشتراط الغزال عليه ألا يسجد له ، ولا يخبرهما عن شيء من سنتهما ، فأجابهما إلى ذلك . فلما مشيا إليه ، قعد لهما في أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذي يفضى إليه فضيق ، حتى لا يدخل عليه أحد إلا راکعاً . فلما وصل إليه جلس إلى الأرض ، وقدم رجله وزحف على أليته زحفاً ، فلما جاز الباب استوى واقفاً ، والملك قد أعد له واحتفل في السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره . بل قام ماثلاً بين يديه فقال : « السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك والتحية الكريمة لك ، ولا زلت

(١) المقصود هنا شبه جزيرة جوتلاند ، والعرب يستعملون لفظ جزيرة لشبه الجزيرة ؛ ووصف الغزال لشبه جزيرة جوتلاند هنا فريد في بابه . وهو من أقدم ما وصلنا من أوصافها الجغرافية . انظر : Cf: G. Jacob, op. cit. p. 38. n. 1.

(٢) هذه الملاحظة من يحى الغزال صحيحة من الوجهة التاريخية ، فقد اعتنق نورمان دانيمرة النصرانية في ذلك الحين ، وبق معظم من يليهم إلى الشمال في جزر سكاجر راك واسكنديناوة على النصرانية .

(٣) يؤيد الغزال هنا كارل فاينهولد :

Cf: Karl Weinhold: Altnordisches Leben, S. 244.

تمتع بالعز والبقاء والكرامة المفضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام في جوار الحى القيوم ، الذى (كل شئ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه المرجع ^(١)) . ففسر له الترجمان ما قاله ، فأعظم الكلام ، وقال : « هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهايتهم » . وعجب من جلوسه إلى الأرض ، وتقديمه رجله في الدخول ، وقال : « أردنا أن نذله ، فقابل وجوهنا بنعليه ، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه » . ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن ، وقرأ عليه الكتاب وفسر له ، فاستحسنه وأخذته في يده ، فرفعه ثم وضعه في حجره ، وأمر بالهدية ففتحت عياها ، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني ، فأعجب بها ، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ، ووسع الجارية عليهم .

وللغزال معهم مجالس مذكورة ومقاوم ^(٢) مشهورة في بعضها ، جاول علماءهم فبكتهم ، وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم . ولما سمعت امرأة ملك الجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ثم شخص فيها طويلا ، ينظرها نظر المتعجب ، فقالت لترجمانها : « سله عن إدمان نظره لماذا هو : أفرط استحسان أم لضد ذلك ؟ » فقال : « ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظراً مثل هذا . وقد رأيت عند ملكنا نساءً انتخبن له من جميع الأمم ، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا » فقالت لترجمانها : « سله ، أجد هو أم هازل ؟ » فقال : « لا ، بل مجد ! » فقالت له : « فليس فى بلدهم إذا جمال ! » فقال الغزال : « فاعرضوا على من نسائكم حتى أقيسها بها » . فوجهت الملكة فى نساء معلومات بالجمال ، فحضرن فصعد فيهن وصوب ، ثم قال : « فيهن جمال ، وليس كجمال المائكة ، لأن الحسن الذى لها والصفات المناسبة ليس يميزها كل أحد ، وإنما يعنى به الشعراء . وإن أحببت الملكة أن أصف حسننها وحسبها وعقلها فى شعر يروى فى جميع بلادنا فعلت ذلك » . فسرت بذلك سروراً عظيماً ، وزهيت وأمرت له بصلة ، فامتنع من أخذها الغزال وقال : « لا أفعل » فقالت للترجمان : « سله ، لم لا يقبل صلتى ؟ ألا أنه حقها أم لأنه حقنى ؟ » ، فسأله فقال

(١) القرآن الكريم . سورة ٢٨ ، آية ٨٨ . وفى نص الآية : وإليه ترجعون .

(٢) كذا فى الأصل . وصحتها : مقامات

الغزال : « إن صلتها بلخزيلة ، وإن الأخذ منها لتشرف ، لأنها ملكة بنت ملك ، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها عليّ ، فحسبي بذلك صلة . وإنما أريد أن تصاني بالوصول إليها أبداً » . فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت سروراً وعجباً ، وقالت : « تحمل صلتها إليه ومتى أحب أن يأتيني زائراً فلا يحجب ، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة » ، فشكرها الغزال ودعا لها وانصرف .

قال تمام بن علقمة^(١) : سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث ، فقلت له : « وكان لها من الجمال بعض هذه المنزلة التي صورت في نفسها ؟ » فقال : « وأبيك لقد كانت فيها حلاوة ، ولكنني اجتلبت بهذا القول محبتها ونلت منها فوق ما أردت » . قال تمام ابن علقمة : وأخبرني أحد أصحابه ، قال : « أولعت زوجة ملك المحوس بالغزال ، فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجه فيه ، ويقيم عندها يحدثها بسير الإسلام وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم ، فقلماً انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية تلتطفه بها ، من ثياب أو طعام أو طيب ، حتى شاع خبرها معه ، وأنكره أصحابه وحذّر منه الغزال . فحذر وأغب زيارتها ، فباحثته عن ذلك فقال لها ما حذر منه ، فضحكت وقالت له : « ليس في ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيره ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحببت ، وتفارقه إذا كرهت^(٢) » . وأما عادة المحوس قبل أن يصل إليهم

(١) توفي سنة ٢٨٣هـ - ٨٩٦م .

(٢) هذه حقيقة تاريخية أخرى عن حياة النورمانيين في ذلك الحين ، وقد علق عليها جيورج ياكوب بقوله :

ورد في كتاب « مختصر صرف اللغة الجرمانية :

Grundriss der germanischen Philologie, 2. Aufl. 3. Band, 1900, s. 422.

ما يلي :

« ويستطيع الإنسان أن يجد عاملاً من العوامل التي ساعدت على استقلال ربة البيت في السهولة التي كانت الزوجة تستطيع بها أن تحصل على الطلاق ، وتستعيد أملاكها من زوجها في نفس الوقت ؟ بهذا تحدثنا الأساطير أيضاً . ويبدو أن حرية الطلاق لم تكن محدودة بشيء في الفترة التي نشأت فيها هذه الأساطير ، فما نراه فيها من حوادث الطلاق لا يستند في الغالب إلا إلى أسباب تافهة ، حتى إنه لمن العسير جداً أن نجد له قيوداً معينة »

Cf: G. Jacob: op. cit. p. 40. n. 3.

دين رومة ، فأَن لاَ يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال ، إلا أن يصحب الشريفة الوضع فتعير بذلك ، ويحجره عليها أهلها^(١) . فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس إليه وعاد إلى استرساله .

قال تمام : كان الغزال في اكتهاله وسيماً ، وكان في صباه جميلاً ، ولذلك سمي بالغزال . ومشى إلى بلاد المحوس وهو قد شارف الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولكنه كان مجتمع الأشد ، ضرب الجسم ، حسن الصورة . فسأله يوماً زوجة الملك — واسمها « نود »^(٢) — عن سنه ، فقال مداعباً لها : « عشرون سنة ! » فقالت لترجمان : « ومن هو ابن عشرين سنة يكون به هذا الشيب ؟ » فقال لترجمان : « وما تذكر من هذا ؟ ألم تر قط مهرأً ينتج وهو أشهب ؟ » فضحكت « نود » وأعجبت بقوله ، فقال في ذلك الغزال بديهاً :

كلفت يا قلبي هوى متعبا	غالبت منه الضيغم الأغلبا
إني تعلقت محوسية	تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله في حيث لا	يلقى إليه في ذاهب مذهبا
يا نود يا رود الشبيب التي	تُطلع من أزارها الكوكبا
يا بأبي الشخص الذي لا أرى	أحلى على قاي ولا أعذبا
إن قلت يوماً إن عيني رأت	مشبهه لم أعد أن أكذبا
قالت : أرى فوديه قد نوراً	دعابة توجب أن أدعبا

(١) يؤيد تلك الحقيقة فابنهولف في كتاب « الحياة القديمة للنورمان » بقوله : « ... وعلى العكس من ذلك كان زواج الأحرار بغير الأحرار غير ممكن ، وكانت عقوبة هذا النوع من العلاقات الموت في أول الأمر » .

Weinhold: Altnordisches Leben, p. S. 243.

(٢) ورد اسم هذه الملكة بالنون في الأصل : نود ، وكذلك في انقرى (نفج ، > ١ ص ٦٣١) ، ويذهب جيورج ياكوب إلى أنه من الممكن أن تكون هذه الصورة تحريفاً لاسم : Tûd أو : Trûd أو : Thûd وما إلى ذلك . وقال إنه من الممكن أن يكون أصل هذه الملكة من بيت ملكي آخر غير بيت ملك النورمانين . لأن سلطان زوجها كان يمتد إلى إسبانيا كما يقول الغزال . ولكن عبارة الغزال معناها أن سلطان زوجها — هاريك — كان يمتد إلى جميع النواحي التي كان النورمانيون يسيطرون عليها في ذلك الحين . أى حتى شطلىء إفريقيا وكويتين إلى حدود إسبانيا النصرانية .

Cf.: G. Jacob, op. cit. p. 41 n. 1.

قلت لها : يا بأبى إنه قد ينتج المهر كذا أشهباً
 فاستضحكت عجباً بقولى لها وإنما قلت لكى تعجبا
 وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس
 ابن الأحنف ، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ،
 وإنما أوجب أن يكون ذكره منسياً أن كان أندلسياً ، وإلا فما له أنخل ؟
 وما حق مثله أن يهمل ، وهل رأيت أحسن من قوله :

تأبى لشمس الحسن أن تغربا ؟

أو كالبيت الأول من هذه القطعة ، أو كصفتها لما جرى فى الدعابة ؟
 هل وصفه إلا الدر المنتظم ، وهل نحن إلا نظم فى حقنا ونهتضم (١) ؟ .
 ولنرجع إلى ذكر الغزال : فإنه لما أنشد « نود » الشعر ، وفسره الترجمان
 لها ، ضحكت منه وأمرته بالخضاب ، ففعل ذلك الغزال ، وغدا عليها يوماً ثانياً
 وقد اختضب ، فمدحت خضابه وحسنه عنده ، ففى ذلك يقول الغزال :

بكرت تحسن لى سواد خضابى فكأن ذاك أعادنى لشبابى

ما الشيب عندى والخضاب لوصف إلا كشمس جللت بضباب

تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا فيسير ما سرت به لذهاب

لا تنكرى وضع المشيب فإنما هو زهرة الأفهام والألباب

فلدى ما تهوين من شأن الصبا وطلاوة الأخلاق والآداب

ثم انفصل الغزال عنهم ، وصحبه الرسل إلى شنت يعقوب (٢) بكتاب ملك
 المجوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم (٣) ،

(١) هنا نجد دليلاً على ما كان ابن دحية يهتم به من الحدة والجرأة ، وفيه كذلك دليل على ما كان
 الأندلسيون جميعاً يشعرون به من بغض للشارقة واستعلاء عليهم ؛ ونجد هذه الروح — روح
 الثورة على المشرق والتسامى عليه — عند ابن بسام فى الذخيرة (انظر المقدمة) ابن حزم
 (انظر رسالته التى أوردتها المقرئ) وابن فرج فى مقدمة « الحقائق » .

ولعل ابن دحية يفرج عن نفسه بهذا الكلام ويتعزى به عما أصابه هو من مهانة على يد
 السطال الكامل وفقهاء عصره

(٢) فى جليقية . ورسومها كتاب المسلمين عادة : « شنت ياقب » ؛ وهى بالإسبانية :

Santiago de Compostela.

(٣) أى حج نصارى الإسبان إلى بلدة « شنب ياقوب » ، وكان فيها قبر القديس يعقوب ،
 أحد كبار القديسين ، ويقال إنه كان من حوارى المسيح . وكان نصارى قشتالة يحجون إليه .
 وقد علق دوزى على هذه الفقرة بعد ترجمتها تعليقاً طويلاً ذكر فيه أنها لا تعطى إلا =

فصدر على قشتالة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً .

* * *

وهذا الوصف وحده كاف لإقناعنا بأن خبر هذه الرحلة صحيح غير مختلق ، كما ظن ليثي پروفنسال . ففيه من الإشارات واللمحات ما يدل على أن ابن دحية يتحدث عن واقعة صحيحة ، لا عن « أسطورة مخترعة من أولها إلى آخرها » . ولو كان الغزال جغرافياً لاستطاع وصف رحلته على أدق من ذلك ، بل لو كان ابن دحية جغرافياً - ولم يكن أديباً - لما أضفى على الكلام هذا الطابع الأدبي الذي كان بعض الأسباب التي شككت پروفنسال في صحته .

ومن دلائل صدق الرواية أن أبا الخطاب يسندها إلى تمام بن علقمة ، وكان من كبار رجال الأمويين الأندلسيين ومواليهم ، وقد قام بدور عظيم في تاريخ الأندلس أثناء إمارات هشام والحكم الرضى وعبد الرحمن الأوسط ، وتوفى عن سن عالية سنة ٢٨٢ هـ - ٨٩٦ م . وقد أنشأ تمام تاريخاً منظوماً لأمرء الأندلس إلى عهده ، وكتب في التاريخ نثراً كذلك . وقد نقل ابن دحية أخبار الغزال ورحلته إلى بلاد النورمانيين عن أحد مؤلفاته ، ولم يكن بحاجة إلى أن يكلف نفسه عناء هذا الاختلاق إذا كان غرضه مجرد رواية بعض أشعار ليحيى الغزال . هذا ، وقد كان إسناد هذه الرواية إلى تمام من الأسباب التي حدت بدوزى إلى قبولها ، وقد كان عالماً ناقداً لا يجوز عنده إلا الصحيح^(١) ، ولم يقع في أيدينا - بعد دوزى - نص واحد ينفي هذا الخبر . والقول بكذبه يحتاج إلى ما يؤيده ، غير مجرد إهمال ابن حيان إياه ومشابهته لأخبار رحلة الغزال إلى القسطنطينية ، وربما يكون

معلومات ضئيلة عن بلاد النورمانيين في ذلك الحين ، وأنها لا تذكر شيئاً عن غرض هذه السفارة . وعلق على شخصية الغزال بقوله : « إنه كان من غير شك سفيراً ماهراً ، كان رجل به ط ، وكان ذا ذكاء وفهم ، وكان خبيراً بأمور الدنيا . ومن العجب أن نرى كيف أن هذا العرفي الذي عاش في القرن التاسع نوصّل إلى هذه الحقيقة : وهي أنه لا بد من كسب ود النساء حتى يحقق الإنسان أعم الاعظمية . ولم يجاره في فهم هذا الباب أحد ، فقد كان أقدر الناس على تعلقهن بأسلوب ذكي رقيق . ويبدو أنه كانت له موهبة أخرى ، هي الصمت عند الزوء . ولا بد أنه قص على أصحابه أثناء عودته شيئاً كثيراً عن مغامراته ، دون أن يفضي إليهم بشيء من أسرار الدولة التي أوثمن عليها بما يزيد من قدره ، ولو أننا نأسف له من الناحية التاريخية » .

(١)

الغزال نفسه قد أدخل في حديثه عن رحلته ما ظن أنه يزيدها طرافة ، وربما يكون المؤرخون من بعده خلطوا بين أحداث الرحلتين ، وهذا في ذاته لا ينفي قيامه بالرحلة أصلاً .

ثم إن وصف الغزال لشبه جزيرة جوتلاند وما يجاورها من الجزائر يؤكد لنا ذهابه إليها ، فهو أقدم وصف عربي لهذه الناحية ، إذ أن ابن دحية توفى في القاهرة سنة ٦٣٣هـ-١٢٣٥ م ، فمن أين استقى هذا الوصف الجغرافي الدقيق إلا من رجل ذهب إلى هناك ورآها بنفسه ؟ هذا ، ولم يحدثنا المسلمون عن واحد منهم ذهب إلى هذه البلاد الشمالية قبل ذلك الزمان ، بل إن من أتوا بعد ابن دحية لم يتحدثوا عن دانيمرقه بهذه الدقة ، فالقزويني - زكريا بن محمد بن محمود - لم يذكرها في « آثار البلاد وأخبار العباد » ، وإنما ذكر المحوس فقط دون تحديد لبلادهم ، ووصفها الإدريسي ، ولكن وصف الغزال - عن طريق تمام بن علقمة وأبي الخطاب بن دحية - أدق ، فهو يقول :

« ووصل - أى الغزال - أول بلاد المحوس إلى جزيرة من جزائرها ، فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم وأجمعوا أنفسهم ، وتقدم مركب المحوس إلى ملكهم ، فأعلمه بلحاق الرسل معهم ، فسر بذلك ووجه فيهم ، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه ، وهى عظيمة فى البحر المحيط فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهى ثلاثمائة ميل ، وفيها المحوس ما لا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس ، وما يابهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار . . . » وهو وصف طيب من الناحية الجغرافية ، وهو أقرب إلى الحقيقة على أى حال من قول الإدريسي : « وجزيرة دانا مرخنة فى ذاتها مستديرة الشكل رملة ، وفيها من المدن أربع قواعد وقرى كثيرة ومراس مستورة معمورة . فأول ذلك من فم الجزيرة إلى مدينة ألسية على يسار الدآخل خمسة وعشرون ميلا ، وهى مدينة صغيرة متحفزة بها أسواق قائمة وعمارات دائمة ، وهى على ساحل البحر . . . » فكيف أتاحت لنمام

ابن علقمة هذه المعرفة التي لم تتح للإدريسي ؟ إلا من رجل ذهب إلى هذه النواحي ورآها بنفسه ، وإذا كان هو نفسه يذكر أنه أخذه عن يحيى الغزال ، فما وجه القول بأن القصة مختلقة من أولها إلى آخرها ؟

وقرينة أخرى تؤيد صدق هذا الخبر ، هي قوله أن مجوس دانيمرة كانوا على المجوسية ثم دخلوا النصرانية ، وبقيت منهم بقايا مجوسية وثنية في الجزائر المحيطة بشبه الجزيرة . وهذا هو الواقع الذي تؤيده المراجع كلها ، فمن الثابت أن نورمان دانيمرة دخلوا النصرانية قبيل رحلة الغزال إلى دانيمرة ، فقد كان أول من تنصر من ملوكهم هارولد الأول - عم هوريك - تنصر في إنجِلْهايم سنة ٨٢٦م . وتبعه بقية قومه ، وانتشرت النصرانية في شبه الجزيرة على أيام هوريك^(١) ، وبقيت من النورمانيين الدانيمريين جماعات وثنية في الجزائر . وأخذ هارولد ثم هوريك يغازونهم ، ليرغموهم على الطاعة والنصرانية معاً . وهذه كلها حقائق ذكرها تمام بن علقمة عن يحيى الغزال ، ولو كان أبو الخطاب بن دحية نقلها عن أحد معاصريه في القرن الثالث عشر الميلادي لما ذكر هذه المعلومات التي لا تنطبق على دانيمرة إلا في الفترة التي زارها فيها الغزال . ثم إن مثل هذا الوصف الدقيق والحديث عن حالة المجوس الدينية لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل رأى هذه البلاد بنفسه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، ولم يبلغنا أن أحداً من المسلمين ذهب إلى هذه النواحي في ذلك الحين إلا يحيى الغزال .

ثم إن قول تمام : « وانجفل المجوس لرؤيتهم ، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم » يدل بوضوح على أن وصف هذه الرحلة لا يمكن أن يكون مقتبساً من وصف رحلة الغزال إلى بلاط القسطنطينية ، لأن أهل هذا البلد الأخير لم يكونوا بحاجة إلى أن « ينجفلوا » لرؤية نفر من العرب ، وهم يعرفون العرب وأزياءهم جيداً بسبب الحوار واتصال العلائق ، أما النورماند فمن الطبيعي أن ينجفلوا لرؤية هؤلاء الأندلسيين في ملابسهم الشرقية اللطيفة ، وهذه الإشارة تدل على أصالة الخبر وصدقه .

وهذا لا ينفي أن تفاصيل هذه الرحلة فيها مبالغة ظاهرة ، فهذه العلاقات الموصولة مع ملكة النورمانيين ، وهذه الدعابات المتواترة بينه وبينها ظاهرة

التكلف ، ولا يبعد أن يكون الغزال نفسه صنعها ليزوق بها^(١) وصف رحلته ويضفي عليها طرافة . وإذا كان صحيحاً أن الغزال لقي امرأة تسمى « تود » في الدانيمركة وأعجب بها وأعجبت به وقال فيها هذا الشعر كله ، فالغالب أنها كانت من سيدات البلاط أو الظاهرات من نساء النورمانيين . وملاحظة « تمام » عن حرية المرأة في الدانيمركة في ذلك العصر جديدة بالعناية ، وهي ولا شك تنفع من يدرسون تاريخ المجتمع الدانيمركي في هذه العصور . بقيت لنا ملاحظة على طريق عودة الغزال ، فقد أربى بشاطيء إسبانيا في الشمال على مقربة من شنت ياقب Santiago « بكتاب ملك المحوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم ، فصدر على قشتالة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً » وهي إشارة يفهم منها أن ملك أشتريس إذذاك ردمير الأول (Ramiro I ٨٤٢ - ٨٥٠) كان على سلام مع عبد الرحمن الأوسط خلال السنة التي عاد أثناءها الغزال من رحلته وهي سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦ م ، والواقع يؤيد ذلك من بعض الوجوه ، فليس في تاريخ ردمير هذا حروب متصلة مع المسلمين فيما خلا معركة Cloijo المشكوك في صحة خبرها سنة ٨٤٢ م ، وما تشير إليه المراجع الإسلامية من دخول ردمير في ليون في أواخر سنة ٨٤٦ م^(٢) . وإشارة تمام إلى العلاقات الطيبة بين هوريك ورمير الأول جديدة بأن يلاحظها مؤرخو أشتريس في تلك العصور .

تلك هي سفارة يحيى الغزال إلى هوريك ملك الدانيمركة ، وهي في ذاتها حادث طريف في تاريخ الإمارة الأموية الأندلسية وفي تاريخ « السفارات » الإسلامية على السواء . صحيح أنها لم تثمر شيئاً ، لأن النورمانيين عادوا فهاجموا الأندلس بعد ذلك بسنوات قليلة كما ستري ، ولكنها لا تختلف في هذا عن كثير من سفارات هذه العصور ، فقد انتهت سفارة الغزال نفسه إلى بلاط تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى غير نتيجة كذلك^(٣) ، وإلى

Ballesteros : Historia de Espana, II, p. 193.

(١)

Cf.: Lévi-Provençal: Byzance et Cordoue au IX siècle, dans:

(٢)

Hist. de l'Esp. Mus. 1. p. 177.

مثل هذه النتيجة كانت تنتهى السفارات والمراسلات التى لم تنقطع بين أمراء الأندلس الأمويين وملوك الدويلات النصرانية فى شمال الأندلس ، وبينهم وبين أباطرة بيزنطة وغيرهم . ولكنها تدلنا - على أى حال - على أن عبد الرحمن الأوسط كان رجلاً متفتح الذهن إلى مثل هذا اللون من الاتصال السلمى مع معاصريه من الملوك . وحسبه نتيجة لرحلاته سفيره الغزال إلى أقصى البحر الأبيض المتوسط فى الشرق وإلى دانيمة أن أحاط علماً بالأحوال فى تلك البلاد ، وعرف أشياء لها قيمتها عن أولئك « الأرمنيين » الذين كانوا لعنة هذه العصور ، لا للأندلس وحده بل لبلاد أوروبا كلها وحوض البحر الأبيض المتوسط كله وشواطئ إفريقيا بعد قليل .

٥

غارة النورمانيين على الأندلس

فى عهد الأمير محمد

٢٣٨ هـ - ٨٥٣ م

لم تنقض على عودة الغزال ثلاث عشرة سنة حتى عاد النورمانيين يهددون سواحل الأندلس من جديد : كان هوريك قد توفى سنة ٨٥٤ م ، وسادت الفوضى نواحي الدانيمرقة وكافة البلاد التى كان النورماند يسيطرون عليها مثل إيرلاندة ونورثامبريا فى شمال إنجلترا وبعض نواحي النرويج وفريزلاند على ساحل المانش ، وكانت نتيجة هذه الفوضى أن تحرر قرصان النورمان من كل قيد ، فمضوا يغيرون على الشواطئ التى استطاعوا الوصول إليها ، وتعتبر الفترة من ٨٥٠ إلى ٨٧٨ ميلادية أوفر فترات عهد القرصنة فى تاريخ النورمانيين نشاطاً . وقد ظهر فيهم خلالها زعيم يسمى بيورن يارنيسيووا Bjorn Jarnisioaa قاد أساطيل مراكبهم ومضى يضرب بها شواطئ دولة الفرنجة فى عنف ، وأعانه على ذلك اشتغال أبناء « لويس التقي » بالحروب التى شجرت فيما بينهم بعد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م . فاستطاع النورمانيين الدانيمرقيون أن ينشئوا لأنفسهم مراكز جديدة فى مصبات أنهار « الرين »

و « الشلد » و « السوم » و « السين » و « اللوار » و « الجارون » . ولم يجد أهل هذه النواحي من يحميهم من أذى هؤلاء القراصنة العتاة ، فناروا بهم وهاجموا مراكزهم بين السين والوار هجوماً عنيفاً في سنة ٨٥٩ ، ولكنهم لم يستطيعوا طردهم (١) .

وفي سنة ٨٥٩ م تحرك النورمانيون نحو شبه الجزيرة الإيبيرية من جديد ، ومروا بسواحل جليقية في طريقهم إلى الشواطئ الغربية ، وكان يقودهم في هذه المرة الزعيم « بيورن يارنسيوا » الذي ذكرناه ، وقرصان آخر من طرازه يسمى هاشتائين أو هيستنجز (Hasteinn, Hastings) . وكانا يرجوان من غارتها تلك مغنم طيبة ، ولكنهما وجدا الأحوال على شواطئ الأندلس الإسلامي قد تغيرت تغيراً ظاهراً عما عهدا عليه أبناء جلدتهما ، قبل ذلك بخمس عشرة سنة .

كان الأمير عبد الرحمن قد توفي منذ سبع سنوات (٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ - ٢٣ سبتمبر ٨٥٣ م) ، وخلفه ابنه الأمير محمد ، وكان يختلف عنه في كثير . فقد كان الأمير محمد نشيطاً يقظاً حازماً ، لا يميل إلى الدعة والرفاهية اللتين شغلنا عبد الرحمن الأوسط عن كثير من شؤون رعيته ، فكان دائم الجلوس إلى رجال دولته ، يحادثهم ويباحثهم فيما جل أو صغر من شؤون الدولة ، بل كان يسرف في الاهتمام بشؤون الدولة ومراجعة تفاصيلها إلى حد كان يثير النقد في بعض الأحيان . وإجماع المؤرخين القدامى منعقد على الإعجاب به وتقديره ، وتفصيل حياته تدل على أن دوزي أخطأ في نقده خطأ بالغاً ، إذ كانت لمحمد من صفات الكفاية والقدرة ما جعل ملوك « نكور » و « تاهرت » في إفريقية من أتباعه ورجاله ، وما جعل شارل الأصلع (Charle le Chauve) ملك الفرنجة يعجب به ويعقله . وقد تمتعت الأندلس في العشرين سنة الأولى من حكمه بفترة من الرخاء والهدوء تعتبر استمراراً لحكم عبد الرحمن الأوسط ، حتى نجمت

Allen Mawer: op. cit. p. 220.

(١)

ويسمى عصر القرصنة في تاريخ الشعوب النورمانية في الإنجليزية The Viking Period ، وهو العصر الذي ملأت حوادثه بلاد دانيمرة وشبه جزيرة اسكنديناوة ، ولهذا العصر في تاريخ هذه الأمم حضارة خاصة .

Cf: J. Danstrup: op. cit. chap. III. pp. 15 sqq

فتنة عبد الرحمن الجليقي في نواحي الغرب ، وفتنة « عمر بن حفصون » في الجنوب ، وحتى وقع اضطراب العرب في إقليمي إشبيلية ومرسية ، فبدأت الفتنة الكبرى خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه ، ومسئوليته في هذه الاضطرابات كلها قليلة^(١) .

في عصر محمد هذا عاد النورمانيون إلى مهاجمة الأندلس . وسنستبين من تفاصيل غارتهم تلك كفاية الأمير محمد وسلامة نظام حكومة الأندلس على عصره .

ذكرنا كيف انساح المجوس نحو الجنوب رويداً ، بسبب اضطراب أحوال دولتهم بعد موت « هوريك » ، وكيف وصلوا إلى مصب الجارون سنة ٨٥٩ م ، وكيف خرجوا من هناك للإغارة على بلاد إسبانيا . ويتفق المؤرخون الإسلاميون وكتاب المدونات اللاتينية من الإسبان على أنهم ظهروا أول الأمر هذه المرة عند شواطئ أشتريس أيضاً سنة ٢٤٥ هـ (٨ أبريل ٨٥٩ - ٢٧ مارس ٨٦٠) . ورواية ابن عذارى أوفى ما بين أيدينا في هذا المقام ، فهي تقول : « وفيها - (أى في سنة ٢٤٥ هـ) - خرج المجوس أيضاً إلى ساحل البحر بالغرب في اثنين وستين مركباً ، فوجدوا البحر محروساً ، ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية في

(١) تجد أخبار الأمير محمد في :

- الأخبار المجموعة ، ص ١٤١ - ١٥٠ .
 - ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٧٠ - ١٠٢ .
 - ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٦ - ١٢٣ .
 - ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٣٠ - ٢٦٣ .
 - النويرى ، نهاية الأرب (طبعة جبار ديمرو) ، ص ٢٠٥ - ٢١١ .
 - ابن الأبار ، الحلة ، ص ٦٤ - ٦٥ .
 - ابن الخطيب ، إعلام الأعلام ، ص ٢٢ - ٢٨ .
 - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٠ - ١٣٢ .
 - المقرئ . نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- وكذلك في :

Dozy, Musulmans d'Espagne, 1, 346-362.

Simon-t, Hist. de los Mozaràbes, p. 443-525.

Ballesteros: Hist de Espana, II. p.

Lévi Provençal. Histde, l'Esp. Mus. pp. 196. sqq.

الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المحوس ، فتلاقت بهم المراكب المعدة ، فوافوا هذين المركبين فى بعض كور « باجة » ، فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبى والعدة . (١) . وتمعنا هنا ملاحظة هذه الحراسة الدقيقة الشاملة التى أقامها الأندلسيون فى بحارهم الشمالية ، لأنها تدل على أنهم لم يكتفوا بحراسة سواحلهم الغربية ، بل انطلقت سفنهم إلى سواحل أشتريس ، لتتقرب المحوس عند خروجهم من شواطئ غالة الغربية ، ولتلقاهم قبل أن ينحدروا إلى الجنوب ، مما يدلنا على أن الأندلسيين « درسوا » هذه المشكلة النورمانية ، وعرفوا من أين يخرج هؤلاء القوم ، وأقاموا طلائع من سفنهم فى هذه الناحية الشمالية لتتقرب حركاتهم . فلم يكذب مركبان من مراكبهم ينفذان نحو الجنوب حتى تعقبتهما سفن المسلمين ، ودخلت خلفها فى « وادى آنة » ، وما زالت بهما حتى استولت عليهما . أما بقية مراكب المحوس فقد اتجهت بعد ذلك نحو الجنوب ، وسفن المسلمين وراءها تطاردها كما سنرى . وربما كان هذا دليلاً جديداً على صحة رحلة يحيى الغزال ، فقد قلنا إنه كان من أغراض سفارته تعرف أحوال بلادهم ، والمواقع التى يخرجون منها لغزو بلاد المسلمين ، وبناء على المعلومات التى أتى بها اتخذت حكومة قرطبة احتياطاتها وأرصدت سفنها فى هذه البحار النائية لتستطلع حركات النورمانيين .

ويعلمنا كذلك أن نلاحظ هنا أن الأسطول النورمانى المهاجم هذه المرة كان — كما فى المرة السابقة — مكوناً من مجموعات صغيرة من السفن تعمل كل منها لحسابها الخاص ، دون أن تكون لها وحدة أو قيادة واحدة توجه أعمالها ، فكانت كل مجموعة تضرب حيثما اتفق لها . ومن ذلك ما يحدثنا به أصحاب « المدونات الإسبانية النصرانية » من أن بعض قطع هذا الأسطول النورمانى أغارت على شواطئ أشتريس فى بعض المواقع ، وأنزلت بها أضراراً جسيمة : فتذكر (مؤرخة البلدة Chronicon Albeldense) أنه فى حكم أورودينو ظهر النورمانيون للمرة الثانية أمام شواطئ جليقية ، ولكن الكونت « بدرو » مزقهم إربا (٢) . ويقول « سباستيان السلمتى » فى

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٩٩

تفصيل أمر هذه الغارة : « وفي هذا الوقت ، وصل القراصنة النورمانيون للمرة الثانية أمام شواطئنا ، ثم ذهبوا إلى إسبانيا^(١) » ، أى أن هذه القاطع من السفن النورمانية لم توفق إلى كثير فى أشتريس وغالة ، كما لم توفق فى ناحية « باجة » على ما رأينا . فلتتبع كتلة السفن النورمانية التى اتجهت نحو الجنوب مساحلة شاطئ إسبانيا الغربية لنرى إلى أين انتهى بها المصير .

يقول ابن عذارى — وهو أدق مؤرخينا الأندلسيين فى هذا المقام : « ومرت سائر مراكب لمجوس فى الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية فى البحر ، فأخرج الأمير الجيوش ، ونفر الناس من كل أوب ، وكان قائدهم عيسى بن الحسن الحاجب . وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى حلت « بالجزيرة الخضراء » ، فغلبوا عليها وأحرقوا المسجد الجامع بها . ثم جازوا إلى العدو ، فاستباحوا أريافها (فى الأصل : أربابها) ، ثم عادوا إلى ريف الأندلس ، وتوافوا بساحل تدمير ، ثم انتهوا إلى حصن أوريوله . ثم تقدموا إلى إفرنجة فشتوا بها ، وأصابوا بها الذرارى والأموال ، وتقلبوا بها على مدينة سكنوها ، فهى منسوبة إليهم إلى اليوم ، حتى انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس ، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركباً . ولقيهم مراكب الأمير محمد ، فأصابوا منها مركبين بريف « شذونة » فيها الأموال العظيمة ، ومضت مراكب المجوس^(٢) .

ومعنى ذلك أن النورمانين لم يستطيعوا دخول « الوادى الكبير » هذه المرة ، لأن الأمير محمداً كان مستعداً لهم بالمراكب والعدة فى هذه الناحية ، ولم تكذب مراكبهم تظهر فى مياه « إشبيلية » حتى سارعت قوات الأمير ، يقودها هذا الحاجب القائد الذى أرسله الأمير على جناح السرعة إلى هذه الناحية للدفاع عنها . ولم يملك الناس الرعب هذه المرة ، بل « نفروا من كل أوب » ليلاقوا هذا العدو الخطر ، وأمام هذا كله لم يجرؤ النورمانيون على النزول بناحية إشبيلية ، ومضت مراكبهم بجذاء الساحل تلتمس موضعاً ضعيفاً تنزل به ،

حتى إذا أدركت ناحية « الجزيرة الخضراء » وجدتها غير محروسة تماماً، فتلز القراصان بها ، واستولوا عليها وأحرقوا مسجدها ، ثم عادوا إلى سفنهم مسرعين ليمضوا إلى ناحية وجدوا أن هجومهم عليها أجدى ، وهى عدوة مراكش مما يلى سبته إلى الشرق ، أى أنهم دخلوا البحر الأبيض للمرة الأولى فى تاريخهم سنة ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م ، وذلك حادث تاريخى فريد فى بابه جدير بأن ينبه عليه وعلى أهميته . ولو لم يجد المجوس أية مقاومة فى ناحية الجزيرة الخضراء لأقاموا أطول مما فعلوا ، ولكن المسلمين الأندلسيين هبوا لملاقاتهم ، وألزموهم بالفرار . توجه النورمانيون إلى الشاطئ الإفريقى ، ونزلوا به عند « نكور » . ويعطينا ابن خلدون بعض التفاصيل عن إمارة « نكور » فى ذلك الحين ، وما فعله النورمانيون بها ، بقوله فى سياق الكلام عن تاريخ « بنى صالح » أصحاب نكور : « . . قال : وولى من بعده - يعنى المعتصم بن صالح بن منصور - أخوه إدريس ، فاخبط مدينة « نكور » فى عدوة الوادى ، ولم يكملها ، وهلك سنة ثلاث وأربعين (ومائة) ، وولى من بعده ابنه سعيد ، واستفحل أمره . وكان ينزل مدينة « تمسامان » ، ثم اخبط « نكور » لأول ولايته ونزلها ، وهى التى تسمى لهذا العهد « المزمة » بين نهريْن أحدهما « نكور » ومخرجه من بلاد « كزَنَآية » ، ومخرجه ومخرج وادى « ورغة » واحد ، والثانى « غيس » ومخرجه من بلاد بنى « وَرَبَاغَل » ، يجتمع النهران فى « أكدال » ثم يفترق النهران إلى البحر ، وتقابل نكور من عدوة الأندلس بيزليانة ، وغزا المجوس نكور هذه فى أساطيلهم سنة ٤٤ (ومائتين) ، فتغلبوا عليها ، ثم اجتمع إلى سعيد البرانس وأخرجوهم منها (١) . »

ويزيدنا ابن القوطية تفصيلاً عما فعل هؤلاء النورمانيون فى غارتهم تلك على نكور ، فيقول : « وتوجهوا إلى « ناكور » وأسروا بها جد ابن صالح ، وفداه الأمير عبد الرحمن بن الحكم (كذا) ، وهى يد بنى أمية عند بنى صالح (٢) » . وهى عبارة تدل على أن المجوس لم يكتفوا بالإغارة على « نكور » وإفساد نواحيها ، بل استطاعوا أسر أميرها . وفى هذه العبارة أخطاء :

(١) أورد هذه الفقرة زيبيل فيما جمع من أخبار النورمانيين فى كتابه :

Rerum Normannicorum ... p. 35.

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٦ .

أولها أن ابن القوطية يجعل غزو « نكور » في أيام الأمير عبد الرحمن ، بينما هي في أيام محمد ، أى في سنة ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م ، وثانيها أنهم لم يأسروا الأمير إذذاك سعيد بن صالح ، بل اثنين من أبناء اخوته (١) ، ولكنها تفيدنا على كل حال ، وهى تبين لنا أن علاقات الولاء التى ارتبط بها كثير من أمراء العدو بالأمويين فى الأندلس إنما ترجع إلى ما قبل أيام عبد الرحمن الناصر كما يظن عادة .

ويجمع معظم مؤرخينا على ذكر حادث آخر للمجوس بإفريقية ، وهم يذكرونه بتطويل لا نستطيع معه إيراد بنصه ، وملخصه أن جماعة من المجوس نزلت بموقع ميناء أصيلا اليوم « Arzila » . وأقبل البربر يدافعونهم عن بلادهم ، فقالوا لهم : « لم تأت لحرب ، وإنما لنا كنوز فى هذا الموضع ، فكونوا ناحية حتى نستخرجها ثم نشارككم فيها » . فابتعد البربر وحفر المجوس ، واستخرجوا دَخَنًا كثيراً عَفْنًا . فحسب البربر أنه ذهب ، وهجموا على المجوس ، وفر هؤلاء إلى سفنهم . فلما أصاب البربر الدخن ندموا على ما فعلوا ، ورغبوا المجوس فى العودة واستخراج المال ، فقالوا : « قد نقضتم العهد » ، وساروا إلى الأندلس (٢) . ويجعل المؤرخون ذلك سنة ٢٢٩ هـ — ٨٤٤ م ، أى قبل غزو النورمانين لإشبيلية الذى ذكرناه ، ويحتمل أن يكون قد وقع فى هذا التاريخ فعلا ، ويحتمل كذلك أن يكون قد حدث بعده ، لأن الذى قامت به كانت جماعة من المجوس لا أسطولهم الرئيسى الكبير . وبهنا من هذا الخبر أن نستنتج أن المجوس كانوا إذا أصابوا فى غزواتهم شيئا من الحبوب التمسوا ناحية خالية يعرفونها من الساحل ، وحفروا فيها ودفنوا الحبوب ليعودوا لاستخراجها وقت الحاجة ، وتلك ملاحظة لها أهميتها لمن يدرسون تاريخ النورمانين .

ونمضى فى دراسة رواية ابن عذارى التى ذكرناها عن هذه الغزوة النورمانية الثانية ، فهو يقول إنهم بعد أن أغاروا على « نكور » اتجهوا إلى الأندلس ، ونزلوا بساحل تُدْمِير وهى مُرْسِيَّة . ويبدو أن الساحل فى هذه الناحية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأندلسية لم يكن محروسا تماما ،

Dozy: Recherches, II, p. 282.

(١)

(٢) البكرى . المسالك والممالك . أورده زيل ، ص ٧ — ٨ .

ابن عذارى : البيان . ج ١ . أورده زيل ، ص ١٥ — ١٦ .

لأن أحداً لم يكن ينتظر أن تصل إليه ضربات المجوس . ولهذا استطاعوا النزول إلى البر ، وتمكنوا من صعود النهر إلى أوريوله Orihuela ، وهي ليست بعيدة إلى الداخل .

ويجمع المؤرخون على أن النورمان ذهبوا بعد ذلك إلى « إفرنجة » ، أى إلى جنوبى غالة ، ولا نعرف السبب فى انصرافهم السريع عن الأندلس ، ولكن حركتهم تلك تتفق مع طبيعة غاراتهم إذ ذاك ، فقد كانوا لا يكادون يفوزون بشئ من ناحية حتى يغادروها إلى غيرها إذا لاحت لهم فرصة غزو وغنم أسهل .

وتؤيد المراجع الفرنسية اللاتينية القديمة ما يذكره مؤرخو المسلمين من أن « المجوس » قضوا الشتاء عند ساحل فرنسا الجنوبي ، عند منابع الرون ، وأنه غرقت لهم هناك أربعون سفينة فى عاصفة عنيفة . فيذكر « بنواسانت - مور Benoit Sainte-Maur » أن النورمانيين وصلوا سواحل إيطاليا فى هذه الغارة ، ثم أصابتهم عاصفة أثناء رجوعهم ، فغرق من سفنهم نحو أربعين . ويضيف الراوية « برودانس » أن النورمانيين نزلوا سواحل پروفانس فى ذلك الحين ، وقضوا الشتاء بجزيرة كاماريا (Camargue = Camaria) ، أى فى المثلث المحصور بين فرعى مصب الرون . أما هذا المكان الذى يذهب ابن عذارى إلى أنه سمي باسم النورمانيين ، فلم نستطع تحقيقه ، وذهب دوزى إلى أن « كاماريا » ربما كانت تسمى باسم النورمانيين حتى زمن ابن عذارى - أو زمن المؤرخ الذى نقل عنه وهو عريب بن سعد القرطبي ، أى إلى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، ثم سميت كاماريا بعد ذلك . فإذا انقضى الشتاء ، شتاء ٢٤٥ هـ - ٨٦٠ م - فقد عاد النورمانيون إلى الأندلس من جديد فى طريقهم إلى بلادهم بمحاذاة ساحل الأندلس الشرقى ، وهنا نجد رواية النويرى أكثر تفصيلاً من رواية ابن عذارى ، فهو يقول بعد أن يتحدث عن غارتهم على إفرنجة : « ثم انصرفوا فلقبهم مراكب الأمير محمد ، فقاتلوهم وأحرقوا مركبين من مراكب المجوس ، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيها ، فوجد المجوس عند ذلك فى القتال ، فاستشهد جماعة من المسلمين ، ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة

Pampluna ، فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى ، ففدى نفسه بتسعين ألف دينار^(١) .

فأما إشارته إلى ملاحقة سفن الأمير محمد لأسطول النورمان ، فتدل على أن محمداً هذا عجل بإرسال سفنه إلى الساحل الشرقى لبلاده لحراستها من المحجوس . ولم تظل هذه السفن تنتظرهم فى مياه الأندلس ، بل سارت نحو ساحل فرنسا الجنوبى ، ولم تكد سفن المحجوس تقلع فى اتجاه شاطئ الأندلس حتى هاجمتها سفن المسلمين هجوماً عنيفاً ، فأغرقت منها سفينتين واستولت على سفينتين أخريين . وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها بأسطول أندلسى فى البحر الأبيض ، ومن ذلك الحين سنجد سفن هذا الأسطول تحرس هذا الساحل وتنشر سيادتها على مياهه ، بل ستستولى على جزائر البليار بعد قليل فى أيام الأمير محمد ، ومن ثم ستسود هذا الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط . وستنشأ دور الصناعة فى مرسية والمرية ، بل ستنشأ موانئ جديدة مثل بجانة Pechina ، ويصبح هذا الساحل من أحصن سواحل الأندلس الإسلامى وأكثرها عمارة ونشاطاً . وهكذا نرى أن هذه الغارات النورمانية كانت العامل الأول فى ميلاد البحرية الأندلسية على السواحل الغربية أولاً ، ثم الجنوبية ثم الشرقية .

وأما ما ذكره النويرى من غارة النورمانيين على « مدينة ببلونة » ، وأسرهـم صاحبها غرسية ، فتؤيده المراجع الإسبانية النصرانية كذلك . فقد كان على عرش نافار (نبرة) إذذك أمير يسمى غرسية بن انيچو Garcia-Inego ، ولكن النويرى وابن الأثير ينفردان^(٢) بذكر أسر النورمانيين إياه ، وافتدائه نفسه بتسعين ألف دينار ، وتاريخ « نبرة » فى هذه العصور أغمض من أن نستطيع تحقيق هذه النقطة على أى حال .

واختفى المحجوس بعد ذلك ، فلم يظهرأ أمام شواطئ الأندلس إلا فى

(١) رواه زبيل فى كتابه الآف الذكر ، ص ٣٣ .

(٢) انظر زابيل . ص ٢٣ . وقد ذكر المقرئ جريثا بن لنييجو باسم غرسية ابن وقته ، وهو تعريب Inigo ، وذكر أنه كان معاصراً للأمير محمد ، ولأردونيو بن اذفائش ، وذكر أنه كان صاحب ببلونة ، مما يثبت صحة ما ذهب إليه ابن الأثير والنويرى
انظر : المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

خلافة الحكم المستنصر ، وفي أول رجب سنة ٣٥٥هـ - ٢٣ يونيو ٩٦٦ م ، على التحديد . ثم عادوا بعد ذلك بثلاثين سنة ، ونكتفى بهذا القدر من تفصيل غارات النورمانيتين في الأندلس ، لأن هاتين الغارتين الأخيرتين شديداً الشبه بالغارتين اللتين فصلنا أمرهما .

وقد أشرت إلى النتائج التاريخية لكل غزوة في موضعها من هذا البحث ، وبقي أن أختمه بالإشارة إلى ما خلقت هذه الغزوات من الرعب في نفوس أهل الأندلس من هؤلاء القراصنة العتاة . وقد ظل هذا الخوف متأصلاً في نفوس أهل الأندلس إلى زمن الإدريسي ، أى بعد قرنين ونصف ، فهو يقول : « وكان يخرج فيها - أى في المراكب التى أطلق الأندلسيون عليها اسم القراقر - أقوام يعرفون بالمجوس ، كانت لهم شدة وبأس وجلد على ركوب البحر ، وكانوا إذا خرجوا تُخلى أمامهم أهل السواحل ، يفرون منها مخافة منهم ، وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعوام أو سبعة ، وكانوا أقل ما يخرجون فى أربعين مركباً ، وقد يخرجون فى مائة وأقل وأكثر ، وكانوا يغلبون كل من لقوه فى البحر ويسلبونهم ويأسرونهم (١) » .

(١) رواه زبيل . انظر كتابه الآنف الذكر . ص ١١ .

المراجع

مراجع عربية :

مخطوطات :

ابن حيان : « المقتبس » ، قطعة منه عن تاريخ الأندلس في عصر عبد الرحمن الأوسط ، لدى الأستاذ عبد الحميد العبادى بك .
ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ج ٣ .
أبو الخطاب بن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب . نسخة مصورة من مخطوط أوكسفورد محفوظة في دار الكتب المصرية .

كتب مطبوعة :

ابن الأبار : الحلة السراء ، القطعة التى نشرها دوزى في كتاب

Notice sur quelques manuscrits arabes, Leyde 1847-1851.

Zeippel: Rerum Normannicorum ...”

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ والقطعة التى نشرها تساييل في

أخبار مجموعة ، طبعة لافويتنى أى الكانزرا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى : نزهة المشتاق ، طبعة دوزى ودى خوية ، ليدن ١٨٦٦ .

البكرى : صفة إفريقية والمغرب ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١١ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر (طبعة بولاق) ج ٦ ،
والجزء الذى نشره تساييل في كتابه الآنف الذكر .

ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار في خبر الأقطار ، طبعة
ليثى بروفسال ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) ج ١ ، ٢ ، ليدن ١٨٤٨ --

. ١٨٥١

الفراء ، أبو على الحسين بن محمد ، رسل الملوك ، طبعة القاهرة ١٩٤٧ .
 القزويني ، زكريا بن محمد ، آثار البلاد ، القطعة التي نشرها تساييل
 في كتابه الأنف الذكر .

ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة رميرا ، مدريد ١٩٢٦ .
 المقرئ ، نفح الطيب ، طبعة دوزي ورايت وكريل ودوجا ، ليدن
 سنة ١٨٥٥ - ١٨٦١ .

المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور محمد مصطفى
 زيادة ، القاهرة ١٩٣٨ .

النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ٢ ، طبعة جسابار ريميرو ، مدريد
 ١٩١٨ .

- BALLESTEROS; *Historia de Espana y su influencia universal*. (Barcelona 1918-1936) vol. II.
- Chronicon Albeldense* apud A. HUICI: *Cronicas latinas de la Reconquista*. (Valencia, 1923) v. I.
- DANSTRUP, JOHN, *A history of Denmark* (London 1930).
- DIERKS, GUSTAV: *Geschichte Spaniens von den fruhsten Zeiten bis auf die Gegenwart*. (Hambourg 1890) vol. I.
- DOZY, R., *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (2e. éd. Leyde 1931) vol. II.
- DOZY, R., *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge*. (Leyde, 1ère éd.) vol. II. pp. 250 sqq.
- FISHER: *A history of Europe*. (London 1937).
- KRUSE, *Chronicon Nortmannorum...*, apud DOZY, *Recherches...*, II, p. 250.
- KUNIK: *Die Berufung der schwedischen Rotsen durch die Finnen und Slawen*, tome II. apud DOZY, *Recherches...*, II, p. 257.
- JACOB, GEORG; *Arabische Berichte von Gesandten an germanische Furstenhufe am g.u. 10. Jahrhundert*. (Leipzig u. Berlin, 1927).
- JACOB, GEORG: *Studien in arabischen Geografen*. (Berlin 1891) Heft 1.
- LÉVI PROVENÇAL: *Un échange d'ambassade: entre Cordoue et Byzance au IXe. siècle dans: L'Islam d'Occident*. (Paris, 1948) pp. 79 sqq.
- Ibidem: *Histoire de l'Espagne musulmane*. tome I. (Le Caire 1944).
- MAWER, ALLEN; *The Vikings. Camb. Med. Hist.* III.
- MOOYER: *Die Einfälle der Normannen in die pyrenaische Halbinsel. Eine grosztentheils aus dem Danischen ubersetzte Zusammenstellung der daruber vorhandenen Nachrichten*. Munster u. Munden.
- WEINHOLD, KARL: *Altnordisches Lehen*.